العنوان: المناهِجُ الدِّراسِيَّةُ، كتابُ التَّوحِيد، المستوى (العاشر).

نُبذَةٌ مُختصَرة: تُعتَبَرُ هذه المادَّة العِلمِيَّةُ تَهْذِيباً واخْتِصاراً لِلمناهِجِ الدِّراسِيَّة في المملكَة العربيَّة السُّعوديَّة المُوَجَّهَةِ لِلطُّلّابِ، وهي مُقَسَّمةٌ على عِدَّة مُستَوياتٍ، ومِن ضِمْنِ هذه المادَّة ما يَختَصُّ بِدِراسَةِ عِلْمِ التَّوحيد، وهي مُقسَّمَةٌ إلى اثنَتي عشرة (12) مُسْتوى، وقد تضمَّنَ المستَوى العاشِر منها شَرحاً موجِزاً لِكتاب التَّوحِيدِ لمؤلِّفِه: فضيلة الشيخ صالح بن فوزان الفوزان – حفظه الله تعالى –، وإنَّ مِن أهمِّ ما اشتمَلَ عليه من المسائِل والأبواب ما يلي:

1- بَيانُ مَعْنى الإسلامِ، وأنَّه دِينُ جَمِيع الرُّسُلِ.

2- بيانُ أُصولُ العَقيدَةِ الإسلامِيَّةِ، وذِكْرُ أدِلَّتِها مِن الكِتابِ والسُّنَّة.

3- بَراهِينُ وحدانِيَّة اللهِ تعالى واستِحقاقه لِلعبادَة دون سِواهِ، كبُرهان الفِطرةِ، وبُرهانِ الخلقِ والإبداعِ، وبُرهان اتِّساق النِّظام الكَوْنِيِّ، والكمالِ الإلهيِّ، وغِناه عن كلِّ مخلُوقٍ وفَقْرِ كلِّ مخلوقٍ إليه.

4- بَيانُ أنَّ التَّوحِيدَ المطلوبَ هو إفرادُ اللهِ بِالعِبادَةِ، وأنَّها شامِلَةٌ لِكلِّ ما يَقُومُ عليه المجتمَعُ المسلِم في عقيدَتِهِ وحُكمِهِ وسُلوكِهِ وأخلاقِهِ.

5- مَنْهَجُ أهلِ السُّنَّة والجماعَة في أسماءِ اللهِ وصِفاتِهِ، والرَّدُّ على مَن أنكَرَ ها، أو أَنْكَرَ شيئاً مِنها.

المستوى العاشر

مقدمة

الحمدُ للهِ رَبِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على أشرَفِ الأنبِياء والمرسلين، نَبِيِّنا محمَّدٍ وعلى آلِه وصحبِه أجمعين. أمّا بعد:

فإنَّ توحيدَ اللهِ سبحانه وتعالى هو أوجَبُ الواجِبات، وهو الأساسُ لجميعِ الأعمالِ، فلا يَقْبَلُ اللهُ أَيَّ عَمَلٍ دُونَه، ولا صَلاحَ ولا سَعادَة في الدُّنيا ولا نجاةَ في الآخِرَة إلّا بِه.

وإيماناً بأهمِيَّة ذلك وتحقِيقاً له حرص مَكتَب تَوعِيَة الجاليات على تَدْرِيس مادَّة التَّوحِيد.

وهذا مُقَرَّر التَّوحِيد لِلمُستوى العاشِر يَتَضَمَّن كتاب التَّوحيد لمؤلِّفِه الشَّيخ: صالح بن فوزان الفوزان – حفظه الله –.

الباب الأول

معنى الإسلام وأُصُول العَقِيدَة

ويتكوَّن من الفصول الآتية:

الفصل الأول: الإيمان بالله.

الفصل الثاني: الإيمان بالملائكة.

الفصل الثالث: الإيمان بالكتب السَّماويَّة.

الفصل الرابع: الإيمان بالرُّسل.

الفصل الخامس: الإيمان باليوم الآخر.

الفصل السادس: الإيمان بالقَدَر خيره وشَرِّه.

الفَصل الأوَّل

بَيانُ مَعْنى الإسلامِ وأنَّه دِينُ جَمِيع الرُّسُلِ

مَعْنَى الإسلامِ:

الإسلامُ هو الاِسْتِسْلامُ للهِ بِالتَّوحِيد، والانقِيادُ له بالطّاعَة، والبَراءَة مِن الشِّرْكِ وأهلِه، وهو دِينُ جميعِ الأنبِياء عليهِم السَّلام، وإن اختَلَفَت شَرائِعُهُم؛ لأنَّ الإسلامَ مَعناه عِبادَة اللهِ تعالى بما شَرَعَه في كلِّ وَقْتٍ بحسَبِهِ. قال الله تعالى عن نوحٍ – عليه السَّلام –:﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس: 72].

وقال – عليه السَّلام –: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة: 131].

وقال عن موسى – عليه السَّلام –: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ [يونس: 84].

وقال عن حَوارِي المسيح: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ [المائدة: 111].

وقال فِيمَن تقدَّم مِن الأنبياء: ﴿ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ ﴾[المائدة: 44].

وهو دِينُ سُلَيْمان، قال تعالى عن بلقيس: ﴿ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [النمل:44].

فالإسلام يتَضَمَّن الاسْتِسْلامَ للهِ وحدَه، فمَن اسْتَسْلَم له ولغيرِه كان مُشرِكاً، ومَن لم يَسْتَسْلِم له كان مُسْتَكْبِراً، والمشرِك والمسْتَكبِر عن الإسلام كلّ منهما كافِرٌ. والاسْتِسْلام له وحدَه يَتَضَمَّن عبادَتَه وحدَه، وطاعَتَه وحدَه – فهذا دِين الإسلام الذي لا يَقْبَل اللهُ غيرَه – كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: 85].

وذلك إنما يكون بأن يُطاع في كلِّ وَقْتٍ بِفِعلِ ما أمَرَ به في ذلك الوقت، فلمّا أَمَر في أوَّلِ الأمر باسْتِقبالِ الصَّخْرَة، ثم أَمَرنا ثانياً باسْتِقبال الكَعْبَة كان كلّ مِن الفِعْلَيْن حين الأَمْرِ داخِلاً

في الإسلام.

فالدِّين هو الطّاعة والعِبادَة له في الفِعْلَيْن، وإنما تَنَوَّع بعض صُوَرِ الفِعْلِ وهو وِجْهَة المصَلِّي، فكذلك الرُّسُل وإن تَنَوَّعَت الشِّرْعَة والمنهاج والوِجْهَة والمنسَك فإنَّ ذلك لا يمنَع أن يكون الدِّينُ واحِداً، كما لم يمنع في شَرِيعَة الرَّسولِ الواحِد [1]. وقد قال لنا: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٣٧ ﴾ [البقرة: 136 - 137].

فأَمَرَنا أن نقولَ آمَنّا بهذا كلّه ونحن له مسلمون. فمَن بَلَغَتْه رِسالَة محمَّد ﷺ، فلم يُقِرّ بما جاء به لم يكن مُسلِماً ولا مُؤْمِناً، بل يكون كافِراً وإن زَعَم أنَّه مُسْلِمٌ أو مُؤْمِنٌ؛ لأنَّه بعد بِعْثَة محمَّد ﷺ صار الإسلام هو الإيمان بِه واتِّباعه، ومَن لم يؤمِن بِه ويتَّبعه فليس بمسلِمٍ وإن زَعَم أنَّه على دِين نبيٍّ من الأنبياء؛ لأنَّ جميعَ الأديان السَّماويَّة نُسِخَت بدِينِ محمَّد ﷺ، وهو خاتم النَّبِيِّين، فالذي يَتَّبِع غيرَ دِينِ محمَّد ﷺ إنما يَتَّبِع دِيناً مَنسوخاً قد انتَهى العَمَلُ به. قال تعالى: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣١ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٢ ﴾ [آل عمران: 31 - 32].

وهذا إذا سَلِمَ شَيْءٌ مِن الأديان السّابقة مِن التَّغيير والتَّبديل والتَّحريف فهو مَنسوخٌ لا يجوز العَمَل بِشَيْءٍ منه إلّا ما أقرَّه الإسلام.

ودِينُ الإسلامِ يَتَكَوَّن مِن عقيدَةٍ وشَرِيعَةٍ: فالعَقِيدَة هي الأساس الذي تُبْنى عليه جميع الأعمالِ والتَّصرُّفات والتَّصوُّرات التي تَصْدُر مِن العَبْدِ، والشَّريعَة هي المنهج الذي يَسِير عليه العَبْدُ في تلك الأعمال والتَّصرُّفات. ولأجل أن تكون العَقِيدَة سَليمَة لا بُدَّ أن تكون على وفْقِ ما جاءَت به الرُّسُل، ونزلت به الكُتُب خالِيةً مِن الشِّرك، ولأجلِ أن يكونَ المنهَجُ سَلِيماً لا بُدَّ أن يكون على وفقِ ما شَرَعَه اللهُ لِعبادِه خالِياً مِن البِدَع.

فالعقيدة هي ما يُؤْمِن به الإنسانُ إيماناً جازِماً، ويَعْقِد عليه قَلْبَه ويَتَيَقَّنه في قَرارَةِ نفسِه.

---

(1) التدمرية (ص **٣٢٢**) لشيخ الإسلام مع شرحها للشَّيخ فالح بن مهدي.

أُصولُ العَقيدَة وذِكْر أدِلَّتِها مِن الكتاب والسُّنَّة:

وعقيدة الإسلام تُبنى على أصولِ وأركانٍ سِتَّةً لا تَصِحّ إلّا إذا وُجِدَت وتحقَّقَت:

وهي الإيمان باللهِ، وملائِكته، وكتُبه، ورُسُله، واليَوم الآخِر، والإيمان بِالقَدَر خيرِه وشَرِّه، وهذه الأركان دلَّ عليها الكتاب والسّنَّة. أمّا الكتاب ففي قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقرة: 177].

وقوله تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: 285].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر: 49].

كما أنَّ الإيمانَ بالله وملائكته ورسله يَسْتلزِم الإيمانَ بِالقَضاءِ والقَدَرِ؛ لأنَّ القَضاءَ والقَدَر مِن أفعالِ اللهِ تعالى، وممّا أخبرَت به كُتُبَه ورُسُلَه – وقد قال النَّبيُّ ﷺ:" الإيمان أن تُؤْمِنَ بِاللهِ ومَلائِكَتِه وكتُبِه ورُسُلِه واليومِ الآخِر وتُؤمِن بِالقَدَر خَيرِهِ وشَرِّه" [1]. فمَن جَحَد شَيْئاً مِن هذه الأركانِ ولم يُؤْمِن بِه ويعتَقِده فهو كافِرٌ؛ لأنها أصول العَقِيدَة كلّها، والشَّيءُ لا يُوجَد إلّا بِوُجود جميع أركانِه. وهذه هي الأركان الباطِنَة، وأمّا الأركان الظّاهِرَة فهي خمسة: شهادَة أن لا إله إلّا الله، وأنَّ محمّداً رسولُ الله، وإقام الصّلاة، وإيتاء الزَّكاة، وصَوْم رَمَضان، وحجّ البَيْتِ الحرام مَن استَطاع إليه سبيلاً، وهذه تُسمَّى أركان الإسلام، وتسمَّى تلك أركان الإيمان، وكلاهما لابُدَّ منه.

الإيمانُ باللهِ تعالى:

فالأصل الأوّل هو الإيمان بالله تعالى – وهو أَصْلُ الأُصولِ – وهو الاعتِقاد الجازِم بأنَّ اللهَ تعالى هو رَبُّ كلِّ شَيْءٍ ومَلِيكُه، وأنَّه الخالِق وحدَه، المدَبِّر لِلكَوْنِ كُلِّه. وأنَّه هو الذي يَسْتَحِقُّ العِبادَةَ وَحْدَه لا شَرِيكَ له. وأنَّ كُلَّ مَعْبُودٍ سِواه فهو باطِلٌ، وعِبادَتُه باطِلَة، قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الحج: 6].

---

(1) رواه مسلم في صحيحه.

وأنَّه مُتَّصِفٌ بِصِفاتِ الكَمالِ ونُعوتِ الجلالِ. له الأسماء الحسنى، مُنَزَّهٌ عن كلِّ نَقْصٍ وعَيْبٍ، لا يُسمَّى ولا يُوصَف إلّا بما سمَّى به نفسَه، ووَصَفَ به نفسَه، أو سمّاه بِه ووَصَفه به رسولُه محمَّد ﷺ.

ما يَشْمَله الإيمانُ باللهِ:

يَشْمَل الإيمانُ بالله التَّوحِيدَ بِأنواعِه الثَّلاثَة:

– تَوحِيدُ الرُّبوبِيَّة: وهو توحِيدُ اللهِ بِأفعالِه سبحانه مِن الخلق والرّزق والإحياءِ والإماتة والتَّدبِير.

– توحيد الأُلوهية: وهو تَوحِيد اللهِ بأفعالِ العِبادِ التي يَتَقَرَّبون بها إليه، كالدُّعاءِ والاستِغاثَة والاستِعاذَة والذَّبح والنَّذر والخوف والرَّجاء والتَّوكُّل والرَّغْبَة والرَّهبَة، والصَّلاةِ والزَّكاة والصَّوم والحجِّ وسائِر الطّاعات.

– توحيد الأسماء والصِّفات: وهو إثباتُ ما أثبتَه اللهُ لنفسِه أو أثبتَه له رسولُه مِن الأسماء والصِّفات، وتَنْزِيهُهُ عمّا نَزَّهَ نفسَه عنه، أو نَزَّهَه عنه رسولُه مِن النَّقصِ والعَيْبِ. كما سيأتي مُفَصَّلاً إن شاء الله.

الأسئِلَة:

س1: ما معنى الإسلامِ ؟، اذكُر الأدِلَّة على أنَّه دِين جميع الأنبِياء، وكيف يمكِن ذلك مع تَعَدُّد الشَّرائِع ؟

س2: ما حُكْمُ مَن بَقِيَ على شَرِيعَةٍ سابِقَة بعد بِعْثَة محمَّد ﷺ ؟ واسْتَدِلّ لِما تقول.

س3: ما الفرق بين العقيدة والشَّريعَة ؟ ومتى يكون كلّ منهما سَلِيماً صَحِيحاً ؟

س4: عرِّف العقِيدَة، واذكر أركانَ عقيدَة الإسلامِ إجمالاً مُستَدِلاً لهذه الأركان مِن الكتاب والسُّنَّة. وما حُكْمَ مَن جَحَد شيئاً مِن هذه الأركان ؟، ولماذا ؟

س5: ما معنى الإيمان بالله تعالى ؟، وما الدَّليل على ما تقول ؟، وماذا يشْمَل الإيمانُ بالله؟

الفَصْل الثّاني

الإيمانُ بِالمَلائِكَةِ

الملائكَةُ خَلْقٌ مِن خَلْقِ اللهِ تعالى، وعِبادٌ للهِ لا يَعْلَمُهُم إلّا هو. فهم مِن عالم الغَيْبِ، والملائِكة جمع مَلَك بمعنى رَسُول مِن الأَلوكَة بمعنى الرِّسالَة، قال تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فاطر: 1].

وقال تعالى: ﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴾ [المرسلات: 1]، يعني: الملائِكَة.

وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: 75].

وقد خلَقَهُم اللهُ مِن النّورِ كما في صحيح مسلم، وأعطاهُم القُدْرَةَ على التَّشَكُّلِ بحيث يأتُون إلى النّاس في صُورَةِ البَشَرِ؛ لأنَّ النّاس لا يستطيعون رُؤْيَتَهم في الصُّوَرِ التي خُلِقوا عليها. فَمِن رحمةِ الله تعالى أن جَعلَهم يَأتُون إلى البَشَرِ بِالصُّورَةِ المناسِبَة لحالهم كما جاءوا إلى إبراهيم – عليه السَّلام – في صورة أضياف. وكان جبريل يأتي إلى النَّبيِّ ﷺ في صورةِ إنسانٍ، ولم يَرَه النَّبيُّ ﷺ في صُورَتِه الملكِيَّة إلّا مَرَّتَيْن كما في الحديث.

كَيْفِيَّة الإيمانِ بِالمَلائِكَة:

الإيمانُ بهم: هو التَّصدِيقُ بِوُجُودِهِم، وأنَّهم عِبادٌ لله خَلَقَهُم لِعِبادَتِه وتَنْفِيذِ أوامِرِهِ في خَلْقِه، والتَّصدِيقُ بأوصافِهِم وأصنافِهِم وأعمالهم التي يقومون بها ممّا وَرَدَ ذِكْرُه في الكتاب والسُّنَّةِ. والإقرارُ بفضلِهِم وشَرَفِهِم، فمِنهم حملَة العَرْشِ، ومنهم المقرَّبون، ومنهم الموكَّلون بالجنَّةِ وإعداد الكَرامة لأهلِها، ومنهم الموكَّلون بالنّار وهم الزَّبانِية وخَزَنَة جَهَنَّم، ومنهم الموكَّلون بحفظِ بني آدم وحِفْظِ أعمالهم وكتابَتِها، ومنهم الموكَّلون بِشَأْنِ النُّطْفَة والأجِنَّة في الأرحام، ومنهم الموكَّلون بِقَبْضِ الأرواح عند الوَفاة، ومنهم الموكَّلون بِسُؤالِ الميِّت حين يُوضَع في قَبْرِهِ عن رَبِّه ودِينِه ونَبِيِّه، ومنه الموكَّلون بِالوَحْيِ وتَبْلِيغِه للرُّسُلِ، ومنهم الموكَّلون بالرِّياح والسَّحاب والنَّباتِ إلى غير ذلك مِن أعمالهم التي يقومون بها بِأَمْرِ اللهِ مع عبادتهم للهِ وخَوْفِهم مِنه وتَسْبِيحِه والسَّجودِ له سبحانه. فلا بُدَّ مِن اعتِقاد ما جاء في الكتاب والسُّنَّة في شَأْنِ الملائِكَة الكِرام عليهم الصَّلاة

والسَّلام.

الأسئِلَة:

س1: ما المراد بالملائكة؟، ومِمَّ خُلِقوا ؟، ولماذا لا يَراهم البَشَر على خِلْقَتِهِم الحقِيقِيَّة ؟، وما حُكْم الإيمانِ بهم، وماذا يَتَضَمَّن ؟

س2: اذكر شَيئاً مِن الأعمالِ التي يُزاوِلها الملائِكَة بِأَمْرِ اللهِ تعالى.

الفَصْلُ الثّالِث

الإيمانُ بِالكُتُبِ الإلَهِيَّة

الإيمانُ بالكتُب الإلهيَّة التي نَزَلت على الرُّسُلِ بأنها حَقٌّ وصِدْقٌ، وأنها كلامَ اللهِ عزَّ وجلَّ، فيها الهدى والنُّور والكِفاية لِمَن أُنزِلَت عليهم. نُؤمِن بما سمَّى اللهُ منها، وهي: التَّوراة والإنجيل والزَّبور والقرآن، ونُؤمِن بما لم يُسَمّ منها، فإنَّ للهِ كُتُباً لا يَعْلَمُها إلّا هو سبحانه.

الحِكْمَة في إنزالِ الكُتُبِ السَّماوِيَّة:

هي رحمَةُ اللهِ بِعِبادِهِ لحاجَةِ البَشَرِ إليها؛ لأنَّ عَقْلَ الإنسانِ محدودٌ لا يُدرِك تَفاصِيلَ النَّفعِ والضَّرَر، وإن كان يُدرِك الفَرْقَ بين النّافع والضّارّ إجمالاً، والعقل البَشَرِيّ أيضاً تَغْلب عليه الشَّهوات، وتلعَب به الأغراض والأهواءُ، فلو وكِّلَت البَشَرِيَّة إلى عُقولها القاصِرَة لَضَلَّت. فاقتَضَت حِكْمَة اللهِ ورحمتُه بِعبادِه أن يُنَزِّل عليهِم هذه الكتب بِواسِطَة رُسُلِه لِيُبيِّنوها لِلنّاسِ، قال تعالى حين أهبَط آدَم أبا البَشَرِيَّة – عليه السَّلام – إلى الأرض: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: 38].

أقسام النّاس حِيالَ الكتُب الإلهِيَّة:

1- قِسْمٌ كَذَّب بها كلَّها، وهم أعداءُ الرُّسُلِ مِن الكفّار والمشركين والفَلاسِفَة والزَّنادِقَة.

2- وقِسْمٌ آمَن بها كلَّها، وهم المؤمنون الذين آمنوا بجميعِ الرُّسُلِ وما أُنْزِلَ إليهِم كما قال تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾ [البقرة: 285].

3- وقِسْمٌ آمَن بِبَعْضِ الكُتُبِ وكَفَر بِبَعضِها، وهم اليَهود والنَّصارى ومَن سارَ على نهجِهِم حيث قالوا: ﴿ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ [البقرة: 91].

ولا شكَّ في أنَّ الإيمانَ ببعضِ الكتُب والكُفر ببعضِها الآخر، أو الإيمان ببعض الكتاب الواحد والكُفْر ببعضِه كُفْرٌ بِالجميع. كما قال تعالى: ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ

فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [البقرة: 85].

كَيْفِيَّة الإيمانِ بِالكُتُبِ السَّماوِيَّة:

الإيمانُ بِالكتُبِ السّابِقَة إيمانٌ مجمَلٌ، يكون بالإقرارِ والتَّصدِيق بها بالقَلْب واللِّسان بأنها كلامُ اللهِ.

أمّا الإيمان بالقرآن فإنَّه إيمانٌ مُفَصَّلٌ يكون بالإقرار بالقّلب واللِّسان واتِّباعِ ما جاء فيه وتحكِيمِه في كلِّ كَبِيرَةٍ وصَغِيرَةٍ. والإيمان بأنَّه كَلامُ اللهِ تعالى حَقِيقَةً لَفْظُهُ ومَعناه. مُنَزَّلٌ غير مخلوق، مِنه بَدَأَ وإليه يَعُود.

وقد اقتَضَت حِكْمَة اللهِ تعالى أن تكون الكتب السّابقة لأجيالٍ مُعَيَّنَة ولأوقاتٍ محدودَةٍ، ووكُلِ حِفْظُها إلى الذين اسْتُحْفِظوا عليها مِن الرَّبانِيِّين والأحبار، وقد وَقَع فيها التَّحرِيفُ والتَّبديل. أمّا القرآن الكريم فقد أنزلَه اللهُ لِكُلِّ الأجيالِ مِن جميع الأُمَمَ، وفي جميع الأوطان إلى يوم القِيامة. وتولى سبحانَه حِفْظَه بِنَفْسِه وتَكَفَّل بِه؛ لأنَّ وَظِيفَة هذا الكتاب لا تَنْتَهِي إلّا بِنِهايَةِ حَياةِ البَشَرِ على الأرضِ.

قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: 9].

وقال تعالى: ﴿ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ [فصلت: 42].

الأسئِلَة:

س1: ما معنى الإيمان بالكتُب الإلهيَّة ؟، أُذكُر شَيئاً مِن أسمائِها، وكيفِيَّة الإيمانِ بها، وما الحكمَة مِن إنزالها ؟

س2: أُذكُر أقسامَ النّاسِ بالنِّسبَة إلى الإيمان بالكتُب الإلهيَّة.

س3: كيف يكون الإيمان بالقرآن الكريم ؟، وما الميزَةُ التي خُصَّ بها مِن بين سائِر الكُتُبِ، ولماذا ؟

الفَصْل الرّابع

الإيمانُ بِالرُّسُلِ

الرُّسُل جَمْعُ رَسولٍ، وهو مَن أُوحِيَ إليهِ بِشَرْعٍ وأُمِرَ بِتَبْلِيغِهِ، فهم الواسِطَة بين اللهِ وخَلْقِه في تَبْلِيغِ رِسالَتِه إليه، وإقامَةِ الحجَّة عليهِم، ووُجوبِ اتِّباعِهِم وطاعَتِهِم.

معنى الإيمانُ بِالرُّسُل:

الإيمان بالرُّسُل معناه: التَّصديقُ بِرِسالَتِهِم والإقرارُ بِنُبُوَّتهم ظاهِراً وباطِناً، واعتِقادُ صِدْقِهِم فيما أخبَروا بِه عن اللهِ وبَلَّغوه مِن الرِّسالاتِ، وأنهم بَلَّغوا غايَةَ البَلاغِ، وبَيَّنوا لِلنّاس ما لا يَسَع أحداً جَهْله.

الحِكْمَةُ مِن إرسالِ الرُّسُل:

إرسال الرُّسل هو بالإضافة إلى إقامَةِ حُجَّةِ اللهِ على عِبادِهِ نِعْمَةٌ عَظِيمَة مِن الله؛ لأنَّ حاجَةَ البَشَرِيَّة إليهِم ضَرورِيَّة، فلا تَنْتَظِم لهم حالٌ ولا يَسْتَقِيم لهم دِينٌ إلّا بهم، فهم يحتاجون إلى الرُّسل أشَدّ مِن حاجَتِهم إلى الطّعام والشَّراب؛ لأنّ اللهَ سبحانه جعَلَ الرُّسُلَ وَسائِطَ بينه وبين خَلْقِه في تَعرِيفِهم باللهِ وبما يَنْفَعُهم وما يَضُرُّهم، وفي تَفْصِيل الشَّرائِع، والأمر والنَّهي، والإباحَة، وبَيان ما يحبَّه اللهُ وما يَكْرَهُه. فلا سبِيل إلى مَعرِفة ذلك إلّا بالرُّسل، فإن العَقْلَ لا يَهْتَدِي إلى تَفْصِيل هذه الأُمورِ وإن كان يُدْرِك الضَّرورَةَ إليها مِن حيث الجُملَةِ، قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: 213].

وحاجَةُ النّاسِ إلى الرِّسالاتِ أشَدّ بكثير مِن حاجَةِ المريضِ إلى الطَّبيب، فإنَّ غايَة ما يحصُل بِعَدَمِ وُجودِ الطَّبِيبِ تَضَرُّر البَدَن. والذي يحصل مِن عَدَم وُجودِ الرِّسالات تَضَرُّر القُلوب. ولا بَقاءِ لأهلِ الأرض إلّا ما دامَت آثار الرِّسالَة مَوجودَة فيهم، فإذا عُدِمَت آثارِ الرِّسالَة قامَت القِيامَة وانتَهَت الدُّنيا. وذلك إذا رُفِعَ القرآنُ، ولم يَبْقَ في الأرض مَن يقول: الله، الله، كما وردَ في الأحاديث.

كيْفِيَّة الإيمانِ بِالرُّسُل:

يجب علينا الإيمانُ بجميعِ الرُّسُلِ الذين ذُكِرَت أسماؤُهم في القرآن بأعيانهم، وهم خمسة وعِشرون، منهم ثمانِيَة عَشَر ذَكَرَهُم الله في قوله: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [الأنعام:83 - 86].

والباقون وهم سَبْعَة [1] ذُكِروا في آياتٍ مُتَفَرِّقَة. فهؤلاء نُؤْمِن بأعيانهم، ومَن لم يُسَمّ مِنهم في القرآن وَجَبَ الإيمانُ بهم إجمالاً، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: 78].

والذي يكفُر برسولٍ واحِد يكون كافِراً بجميع الرُّسل حتى بالرَّسول الذي زَعَم أنَّه مُؤْمِنٌ بِه، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: 150-151].

وقال تعالى:﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: 285].

وقال تعالى: ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ ﴾ [البقرة: 136 - 137].

وذلك لأنَّ الرُّسلَ عليهم الصَّلاة والسَّلام دينُهم واحِد، وهم سلسلة واحِدَة يبشِّر أوَّلهم

---

(1) وهم: آدَم وشِيث وإدريس وهود وصالح وشُعيب وذو الكفل - عند كثير من المفسرين-. انظر: تفسير ابن كثير (١/٥٨٥) مع ملاحظة أنَّ شيثاً لم يَرِد اسمه في القرآن وإنما وَرَدَ في حَدِيثِ أبي ذَرّ.

بآخِرِهِم، ويُصَدِّق آخِرُهُم بِأَوَّلِهِم، ولأنَّ أَدِلَّة نُبَوِّتهم مُتَماثِلَة، وطَرِيقهم في الدَّعوةِ إلى الله واحِد، فمَن كذَّب بِواحِدٍ منهم فهو مُكَذِّب لِلجَميع؛ لأنَّ هذا الذي كذَّب بِه معه مِن الأدِلَّة على صِدْقِ رِسالَتِه مِن جِنْسِ ما مَعَ الرَّسولِ الذي صَدَّقَ بِه أو أَبْلَغ.

والإيمان بمحمَّد ﷺ يتضَمَّن الإيمانَ بخصائِصِه، ومِن أعظمَها عُموم رِسالَتِه للنّاس كافَّة، وبَقاؤها إلى أن تقومَ السّاعة. فهو خاتم النَّبِيِّين، لا نَبِيَّ بعدَه، وهو أفضَلُ الرُّسُلِ على الإطلاق. فمَن ادَّعَى النُّبُوَّةَ بعدَه أو صَدَّقَ مَن يدَّعِيها فهو كافِر مُرْتَدٌّ عن دِينِ الإسلامِ.

الاسئِلَة:

س1: ما المراد بالرُّسل ؟، وما معنى الإيمان بِهِم ؟، وما الحكمَة في إرسالهم إلى البَشَر ؟

س2: اذكر الآيات التي بها أسماء بعض الرَّسل. وما الدَّليل على أنَّ هناك رُسلاً لم تذكَر أسماؤهم ؟ وما كيفِيَّة الإيمان بمن سُمِّي مِنهم ومَن لم يُسمّ ؟

س3: ما حُكْمُ مَن آمَن بِبَعض الرُّسلِ وكَفَر بِبَعْضِهم الآخَر ؟ مع الاستِدلال لِذلك.

الفَصْل الخامِس

الإيمانُ بِاليَوْمِ الآخِر

اليَوْمُ الآخِر هو يَوْمُ القِيامَة، سمِّي بذلك؛ لأنَّه بَعْدَ الدُّنْيا.

والإيمانُ باليَوْمِ الآخِر: هو أن يُصَدِّقَ بِكُلِّ ما بَعْدَ الموتِ مِن عذابِ القبرِ ونعِيمِه، وبالبَعْثِ بعد ذلك، والحساب والميزان، والثَّواب والعِقاب، والجنَّة والنّار، وبِكُلِّ ما وَصَفَ اللهُ به يوم القِيامة، وسمي باليوم الآخِر لِتَأَخُّرِه عن الدُّنيا، وسمِّيَ بعِدَّة أسماءٍ لِشِدَّة هَوْلِه وما يحدُث فيه. وقد دَلَّت على ثُبوتِه ووجوبِ الإيمانِ به جميع الشَّرائِع السَّماوية، وشَهِدَت به العقولُ والفِطَر السَّليمة. وقد تنَوَّعَت أدِلَّة البَعْثِ المذكورة في القرآن الكريم.

1- فتارَةً يخبِر عمَّن أماتهم ثم أحياهم في الدُّنيا، كما حصل لقوم موسى الذين قالوا: أَرِنا اللهَ جهرة، قال تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝٥٥ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٥٦ ﴾ [البقرة: 56].

وعن ﴿ ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ﴾ [البقرة: 243].

وعن الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها وذلك في قوله تعالى: ﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ [البقرة: 259].

وعن إبراهيم عليه السَّلام لَمّا سأَلَه رَبُّه: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة: 260].

فالذي قَدرَ على إحياءِ هؤلاء بعد موتهم في الدُّنيا قادِرٌ على إحيائِهِم في الآخرة، وكما في قِصَّة القَتِيل الذي اشْتَبَه بنوا إسرائيل في قاتِله فلم يعرِفوه، فأمَرهُم الله أن يذبحوا بَقَرَةً ويَضرِبوه بجزْءٍ منها ففَعَلوا فأحياه اللهُ وأخبَرهم بِقاتِلِه. كما ذكر الله ذلك في أول سورة البقرة، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ

مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [البقرة: 67 - 73].

2- وتارةً يستَدِلُّ عليه بِالنَّشأَة الأولى، فإنَّ الإعادَة أسهَل مِن الابتِداء في نَظَرِ العُقول، وإن كان اللهُ لا يُعْجِزُه شَيْءٌ، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ [الحج: 5].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس: 79].

وقال تعالى: ﴿ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الإسراء: 51].

وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الروم: 27].

3- وتارَة يَستِدلُّ على ذلك بخلْقِ السَّماوات والأرضِ، فإنَّ خلقَهُما أعظَم مِن خَلْقِ الإنسانِ وإعادَتِه كقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأحقاف: 33].

4- وتارَةً يستَدلُّ عليه بِتَنْزِيهِ اللهِ عن العَبَثِ كما قال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: 115].

وقال تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾ [القيامة: 36 - 40].

فالنّاس في هذه الدُّنيا منهم المحسِن ومنهم المسِيء. وقد يموتون ولا ينال أحدُهم جَزاءَ عَمَلِه فلا بُدَّ مِن دارٍ أخرى يجازون فيها؛ لأنَّ هذا هو اللائِقُ بحكْمَة اللهِ وعَدْلِه، وتَنزِيهِه عن العَبَثِ والظُّلْمِ.

مِن ثَمَرات الإيمانِ بِاليَوْمِ الآخِرِ:

الإيمان باليوم الآخِر يحمِل الإنسانَ على العَمَلِ الصّالح وفعل الإحسانِ، والامتِناع عن الظُّلْمِ والعُدوانِ والاسْتِعْدادِ لهذا اليوم، وعَدَم الإيمانِ بِه على العكس مِن ذلك يحمِل الإنسانَ على الكُفْرِ والفُسوقِ والبَغْيِ والعُدْوانِ. وأن يعيشَ كالحيوان المفتَرِسِ لا يحاسِب نَفْسَه عمّا يَفْعَل ولا يُفَكِّر في مَصِيرِه.

الأسئِلَة:

س1: ما المراد بالإيمان باليوم الآخر ؟، وماذا يَشمَل ؟، ولماذا سمي بذلك ؟

س2: اذكر أنواعَ الأدِلَّة التي ذكرَها الله على ثبوت اليوم الآخِر.

س3: اذكر شيئاً مِن ثمرات الإيمانِ باليوم الآخر.

الفَصْلُ السادِس

الإيمانُ بِالقَضَاءِ والقَدَرِ خَيْرِهِ وشَرِّهِ

والقَدَر مصدر: قَدَرَ يَقدُرُ قدراً، وقد تُسكّن داله. هو ما قَضاهُ اللهُ وحَكَمَ بِه مِن الأُمور[1]، أي: الأمور الكَوْنِيّة. وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: ولَفْظُ القَدَرِ يُراد بِه التَّقدِير، ويراد بِه المُقَدَّر [2].

والإيمان بالقَدَرِ: هو التَّصدِيق الجازِم بأنَّ كُلَّ خَيْرٍ وشَرٍّ هو بِقَضاءِ اللهِ وقَدَرِه، وأنَّه الفَعّالُ لِما يُرِيد.

مَذهَب أهل السُّنَّةِ والجَماعة في القَضاءِ والقَدَر:

مَذهب أهل السُّنّة والجماعَة هو الإيمان بالقَدَرِ خيرِهِ وشَرِّه، وأنَّ كلَّ ما يحدث في هذا الكَوْنِ قد عَلِمَه اللهُ وقدَّرَه وأرادَه فلا يكون في مُلْكِهِ ما لا يريد.

دَرجات القَضاءِ والقَدَرِ التي يجِب الإيمانُ بها:

والإيمان بِالقَدَرِ يتَضَمَّن أربعَ دَرَجاتٍ:

الدَّرجَة الأولى: الإيمان بِعِلْمِ اللهِ الأزَلِيِّ بِكُلِّ شَيْءٍ قَبْلَ وُجودِهِ. ومِن ذلك: عِلْمُه بأعمالِ العِبادِ قَبْلَ أن يَعْمَلُوها.

الدَّرَجة الثّانية: الإيمانُ بِأنَّ اللهَ كَتَب ما يحدُث في اللَّوحِ المحفوظِ قبل أن يخلُقَ السَّماوات والأرضِ بخمسين أَلْف سَنَة.

الدَّرجة الثّالثة: الإيمان بمشِيئَةِ الله الشّامِلَة لِكُلِّ حادِثٍ، وقُدْرَتِهِ التّامَّةِ على خَلْقِه وإيجادِه.

الدَّرجَة الرّابِعَة: الإيمان بإيجادِ اللهِ لِكُلِّ المخلوقات. وأنَّه الخالِق وحدَه، وما سِواه مخلُوقٌ.

---

(1) النهاية في غريب الحديث (٢٢/٤).

(2) مجموع الفتاوى (١٤٠/٨).

أدِلَّة هذه المَراتِبِ الأَرْبَعِ:

مِن أدِلَّة المرتَبَةِ الأولى والثّانية قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحج: 70].

ومِن أدِلَّة المرتبة الثّالثة قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [التكوير: 29].

ومِن أدِلَّة المرتبَة الرّابعة قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الزمر: 62].

وقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات: 96].

مِن ثَمَراتِ الإيمانِ بِالقَدَرِ:

1- صِحَّة إيمانِ العَبْدِ بِتَكامُلِ أركانِ الإيمان لَدَيْه؛ لأنَّ مَن أنكَرَ القَدَرَ لا يكون مُؤمِناً؛ لأنَّه نَقَضَ ركناً مِن أركان الإيمان.

2- ومِن ثمراتِه: طُمَأنِينَة القَلْبِ وارتياحُه وعَدَمُ القَلَقِ في هذه الحياةِ عندما يُواجِه المكارِهَ؛ لأنَّه إذا عَلِمَ أنَّ الذي يُصِيبُه مُقَدَّرٌ عليه لا بُدَّ له مِنه، فإنَّه لا يَقْلَق ولا يجزَع، بل يَصْبِر ويَرْضَى ويُسَلِّم.

3- أنَّ الإيمانَ بِالقَدَرِ يَدْفَع إلى العَمَل والتَّوكُّل على اللهِ، ولا يكون الإنسان أسِيرَ الأوهامِ والخضوع لِلمخلوقين؛ لأنَّه يعلَم أنَّ ما أصابَه لم يكُن ليخطِئَه، وما أخطَأه لم يكُن لِيُصِيبَه. وأنَّ الخلقَ ليس بأيدِيهِم عَطاءٌ ولا مَنْعٌ ولا ضرٌّ ولا نَفْعٌ إلّا بإذنِ اللهِ تعالى. والله أعلم.

الأسئِلَة:

س1: ما المراد بالقَدَر ؟، وما مَذْهَب أهلِ السُّنَّة والجماعة حِيالَه ؟

س2: اذكر الدَّرجات التي يَتَضَمَّنها الإيمان بالقَدَرِ مُستَدِلّاً لها.

س3: اذكر شَيئاً مِن ثمرات الإيمان بِالقَدَر.

الباب الثاني

بَراهِينُ وحدانِيَّة اللهِ تعالى واستِحقاقه لِلعبادَة دون سِواه

ويتكوَّن من الفصول الآتية:

الفصل الأول: بُرهان الفِطرة.

الفصل الثّاني: بُرهان الخلق والإبداع.

الفصل الثّالث: بُرهان اتِّساق النِّظام الكونيّ.

الفصل الرّابع: بُرهان الكمال الإلهيّ وغِناه عن كلِّ مخلوق وفَقْر كلِّ مخلوقٍ إليه

تمهيد

أهمِيَّة الإيمانِ باللهِ:

الإيمانُ باللهِ سبحانَه هو الأصل الأوَّل مِن أصولُ الإيمان كما تَقَدَّم بيانُه، وهو يَتَضَمَّن الإقرار بِرُبُوبيَّتِهِ وأُلوهِيَّتِه وأسمائِه وصِفاتِه، ولأهمِيَّة هذا الأصل وكونُه أصلَ الأُصولِ ولُبَّ العَقِيدَةِ اقتَضى الأمرُ التَّركِيزَ عليه بِصِفَةٍ خاصَّة، وبيانَ أدِلَّتِه حتى يَتَرَسَّخ في نَفْسِ المسلِم، ولِيَتَمَكَّن مِن رَدِّ الشُّبَهِ التي يُرَوِّجُها المشركون والملحِدون.

مَكانَةُ التَّوحيد في القرآنِ الكريم:

غالِب سُوَرِ القرآن في التَّوحِيد، بل كلُّ سُوَرِ القرآن في التَّوحيد؛ لأنَّ القرآنَ إمّا خَبَرٌ عن اللهِ وأسمائِه وصِفاتِه، وإمّا دَعْوَةٌ إلى عِبادَتِه وحدَه لا شَرِيكَ له، وتَرْك ما يُعْبَد مِن دونِه، وإمّا أمر ونهي وإلزامٌ بِطاعَتِه، فذلك مِن حُقوقِ التَّوحِيدِ ومُكَمِّلاتِه، وإمّا خَبَرٌ عن إكرامِهِ لأهلِ التَّوحِيد، وما فَعَل بهم في الدُّنيا، وما يُكرِمُهم بِه في الآخِرة، فهو جَزاء تَوحِيدِه، وإمّا خَبَر عن أهلِ الشِّرك وما فَعَلَ بهم في الدُّنيا مِن النَّكالِ، وما يحلّ بهم في الآخِرَة مِن العَذاب، فهو جَزاء مِن خَرَجَ عن التَّوحِيد. فالقُرآن كلُّه في التَّوحِيدِ وحُقوقِه وجَزائِه، وفي شَأْنِ الشِّرْكِ وأهلِهِ وجَزائِهِم.

الفَصْلُ الأوَّلُ

بُرْهانُ الفِطْرَةِ

الفِطْرَة: مأخُوذة مِن الفَطَر – بفتح الفاء وسكون الطّاء – وهو الابْتِداء والاختِراع. ويُراد بها الطَّبْعُ والجبِلَّة، ويُراد بها هنا دِين الإسلامِ، كما قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: 30].

وقال النَّبيُّ ﷺ:"كلُّ مَولودٍ يُولَد على الفِطْرَةِ " [1]. ومعناها: أنَّ فِطْرَتَه مُقْتَضِية لِدِينِ الإسلامِ والإقرارِ بِه ومحبَّتِه، فَنَفْسُ الفِطْرَةِ تَستَلْزِم الإقرارَ بخالِقها ومحبَّتَه وإخلاصَ الدِّينِ له، ومُوجِبات الفِطْرَة ومُقْتَضياتها تحصُل شيئاً بعد شَيْءٍ بحسَبِ كمالِ الفِطْرَة إذا سَلِمَت مِن المعارِض. فقد دلَّ الكتاب والسُّنَّة والآثار واتِّفاق السَّلَف على أنَّ الخلْقَ مَفطورونَ على دِينِ اللهِ الذي هو مَعْرِفَتُه والإقرارُ بِه ومحبَّتُه والخضوعُ له، وأنَّ ذلك مُوجِب فِطْرتهم ومُقتضاها يجِب حُصولُه فيهِم إن لم يحصُل ما يُعارِضُه ويَقْتَضِي حُصولَ ضِدِّه [2]. فكلُّ مَوْلُودٍ يُولَد على مَعرِفَة اللهِ والإقرارِ بِه، فلا تجِد أحداً إلّا وهو يُقِرُّ بأنَّ له صانِعاً [3].

فالإقرار بالخالِق مَرْكُوزٌ في الفِطَر، وإنما تظاهَر مَن تَظاهَر بإنكارِه كَفِرعون مِن باب المكابَرَة والعِناد. ولهذا قال له موسى عليه الصَّلاة والسَّلام كما قال الله تعالى: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ [الإسراء: 102]. [4].

وقال تعالى: ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل: 14].

وقال تعالى: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ [العنكبوت: 38].

---

(1) رواه البخاري ومسلم في صحيحهما.

(2) ابن القيم في شفاء العليل (ص ٣٨٨، و٤٠٥).

(3) ابن الأثير في النهاية (٤٥٧/٣).

(4) الآية: ١٠٢ من سورة الإسراء، والآية التي قبلها: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴾

فالآيات تدلُّ على أنَّ هؤلاءِ الكُفّار يَعرِفون الخالِقَ سبحانَه بموجِب فِطَرِهِم، ويتَّجِهون إليه في حالِ ضَروراتِهِم كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: 67].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [لقمان: 32].

فدلَّ ذلك على أنَّ النفوسَ البَشَرِيَّة مَفطُورَة على الإقرارِ بالخالِق، ولكن يَعْرِض لها صَوارِف تُغَطِّي هذه الفِطْرَة. فإذا حَصَلَت الشِّدَّة انقَشَعَت هذه الصَّوارِف وعادَت النُّفوس إلى فِطْرتها الحقِيقِيَّة، فاتجهَت إلى خالِقِها وحدَه تَطْلُب منه النَّجاةَ والإنقاذَ. وإنَّك لَتجِدُ هذا الاتجاهَ الفِطْرِيَّ في الأطفالِ والعَوام الذين لم يَتَعَلَّموا طُرُقَ الاستِدلالِ، تجِدُهُم يَتَّجِهون إلى اللهِ دون مُرْشِدٍ يُرْشِدُهُم مِن الخلق إلى ذلك أو يُلَقِّنهُم إيّاه ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: 30]، ممّا يدلُّ على أنَّ إثباتَ الخالِق أَمْرٌ فِطْرِيٌّ ضَرورِيٌّ، وإن تَظاهَر بعض المتَكَبِّرين والمكابِرِينَ بإنكارِهِ فهم إنما يُنكِرونَ فِطْرتهم وعُقُولهم. وكذلك مَن اتجهوا بِعباداتهم ودَعَواتهم إلى غير الله مِن الأوثانِ والقُبورِ والأولياء والصّالحين يخالِفون مُقْتَضى الفِطْرَة التي فُطِروا عليها؛ لأنهم قد اجتالَتْهُم عنها شَياطِين الإنس والجن، وأعمى بَصائِرَهم التَّقلِيد الأعمى، ولو رَجعوا إلى عُقولهم لاستَعادوا فِطْرتهم التي سُلِبَت مِنهم بِأيدي أعدائِهم، ولهذا احتَجَّ اللهُ عليهِم بما استَقَرَّ في فِطْرتهم مِن مَعْرِفَتِه والإقرارِ بِوحدانِيَّتِه في الخلق والتَّدبير على ما أنكروه مِن وحدانِيَّة في الأُلُوهِيَّة والعِبادَة، حيث عَبدوا معه غيرَه، واتجهوا إلى سِواه، فقال تعالى: ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: 14].

وقال تعالى: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: 102].

وقال تعالى: ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ [العنكبوت: 38].

وذلك لَمّا دَعَتْهُم الرُّسُلُ إلى عِبادَةِ اللهِ.

الأسئِلَة:

س1: بيِّن كيفِيَّة اشتِمال القرآن الكريم على بَيانِ التَّوحِيد وأدِلَّتِه، ولماذا ؟

س2: بَيِّن المرادَ بِالفِطْرَة. وما الدَّليل على أنَّ كلَّ مَوْلودٍ يُولَد عليها. وما معنى ذلك ؟

س3: اذكر شيئاً مِن الأدِلَّة على أنّ الفِطرَة تَعْرِف الخالِقَ وتُقِرُّ به.

س4: كيف تجيب عن كون بعض الخلق كِفرِعَون والشيوعِيِّين أنكَروا وُجودَ الخالِق ؟ وما الأدِلَّة على بُطْلانِ قولهم ؟

س5: ما السَّبَب في كون المشركين يخلِصون للهِ في حالِ الشِّدَّة ؟

س6: ما وَجْه الاستِدلالِ بِالفِطْرَة على بُطْلانِ الشِّرك ؟

الفَصْلُ الثّاني

بُرْهانُ الخَلْقِ والإبْداعِ

مِن أعظَم البَراهينِ على وحدانِيَّة اللهِ تعالى: الخلقُ والإبداعُ الذي انفرَدَ اللهُ تعالى به وأقامَه دليلاً على استحقاقِه للعبادَة وبطلانِ عبادَة ما سِواه، قال تعالى: ﴿ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾ [الرعد: 16].

أي هل هؤلاء الذي اتخذوا شُركاءَ للهِ خَلَقوا خَلْقاً يُشْبِه ما خَلَقَه اللهُ حتى يُشْرِكُوهُم معه في العِبادَة ويُساووهم بِه ؟! كلاَّ ليس الأمر كذلك، فإنَّ اللهَ هو المتفَرِّدُ بالخلق والإبداع، فيجب أن يُفْرَدَ بِالعِبادَة، وقال تعالى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: 17]، وقال تعالى: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ [لقمان: 11].

ولهذا حثَّ سبحانَه على النَّظَرِ في آياتِه الكَوْنِيَّة الدّالَّة على وحدانِيَّتِه في الخلق والإبداع واستِحقاقِه لِلعِبادَةِ دون سِواه، وذلك:

1- في النَّظَر في الأرضِ وما بَثَّ فيها مِن مخلوقات:

قال تعالى: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾ [الذاريات: 20].

وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴾ إلى قوله: ﴿ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴾ [النبأ: 6 - 16].

وقال تعالى: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ [ق: 7].

وقال تعالى: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد: 4].

وفي هذه الآيات الكريمة يُوَجِّه سبحانَه الأنظارَ إلى التَّفكِيرِ في خَلْقِ الأرضِ مِن حيث سعَة رُقْعَتِها حتى تَسْتَوْعِبَ المخلوقات التي تعيش على ظَهْرِها على اختِلاف أصنافها وطبائِعِها، وجَعَلَها ممدودَةً ممهَّدَة مُثَبَّتَةً بالجبالِ الرَّواسِي لئَلّا تميدَ بِأهلِها. وأنبَتَ فيها مِن مختَلف النَّباتات التي يَقْتات منها سُكان تلك الأرض، وهي على رغم اتحادِ مَنْبَتِها ومادَّة سَقْيِها مختَلِفَة الطُّعوم والرَّوائح والمنافِع مما يَدلُّ على قُدْرَةِ خالِقِها، وسعَة عِلْمِه، وبالِغِ حِكْمَتِه، وواسِع رَحْمَتِه، وانفرادِه

بالخلق والإبداع، واستِحقاقِهِ لِلعِبادَة:

تأمـــــل في نبـــــات الأرض وانظـــــر ❊❊ إلى آثـــار مـــا صـــنع المليـــك
عيـــون مـــن لجـــين نـــاظرات ❊❊ بأحـــداق هـــي الـــذهب السـبيك
علـــى قضـــب الزبرجـــد شـــاهدات ❊❊ بـــأن الله لـــيس لـــه شـــريك

قال العلامة ابن القيم: ثم تأمَّل خَلْقَ الأرْضِ على ما هي عليه حين خَلْقِها واقِفَةً ساكِنَةً لِتَكون مِهاداً ومُسْتَقرّاً لِلحَيوانِ والنَّباتِ والأَمْتِعَة. ويتَمكَّن الحيوان والنّاس مِن السَّعي عليها في مَآربهم والجلوس لِراحاتهم والنَّوم لهدوئِهِم، والتَّمكُّن مِن أعمالهم، ولو كانت رَجْراجَةً مُتَكَفِّئَةً لم يَستَطِيعوا على ظَهْرِها قَراراً ولا هدوءاً، ولا ثَبَت لهم عليها بِناء، ولا أمكَنَهُم عليها صِناعَةٌ ولا تجارَةٌ ولا حِراثَة، ثم تَأَمَّل الحكمَةَ العَجِيبَة في الجبالِ التي يحسَبها الجاهِل الغافِل فَضْلَةً في الأرض ولا حاجَة إليها، وفيها مِن المنافِع ما لا يحصِيهِ إلّا خالِقُها وناصِبُها، فمِن مَنافِعِها أنَّ الثَّلْجَ يَسْقُط عليها فيَبْقى في قُلَلِها حاصِلاً لِشَراب النّاس إلى حين نَفاذه لِيَذوبَ أوّلاً فأوّلاً، فتَجِيء منه السُّيول الغَزِيرَة وتَسِيل منه الأنهار والأودِيَة فينبت في المروجِ والوِهاد والرُّبى ضُروبَ النَّبات والفَواكِه والأدوِيَة التي لا يكون مِثْلها في السَّهلِ والرَّمل، ومِن مَنافعها ما يكون في حصونها وقُلَلِها مِن المغارات والكهوف والمعاقِل التي هي بمنزلة الحصُون والقِلاع، وهي أيضاً أكنانٌ لِلنّاسِ والحيوان، ومِن مَنافِعِها ما يُنْحَت مِن أحجارِها لِلأبْنِيَةِ على اختِلافِ أصنافِها، ومِن مَنافِعِها ما يُوجَد فيها مِن المعادِن على اختِلافِ أصنافِها، ثم تَأَمَّل الحكمَة الإلهيَّة في إخراج الأقواتِ والثِّمارِ والحبوب والفَواكِه مُتَلاحِقَةً شَيْئاً بعد شَيْءٍ مُتَتابِعَةً ولم يخلقها كلَّها جملَةً واحِدَةً. فإنها لو خُلِقَت كذلك على وَجْهِ الأرضِ ولم تكُن تَنبُت على هذه السُّوق والأغصانِ لحَصَل الخَلَلُ وفاتَتِ المصالح التي رُتِّبَت على تَلاحُقِها وتَتابُعِها؛ فإنَّ كلَّ فَصْلٍ وأوانٍ يقتَضِي مِن الفَواكِهِ والنَّباتِ غيرَ الذي يقتَضِيهِ الفَصْلُ الآخَر. ثم إنَّه سبحانَه خَلَق تلك الأقوات مُقارِنَةً لِمَنافِعَ أُخَر مِن العَصْفِ والخشَب والوَرَقِ والنَّوْر والسَّعَفِ والكَرَب وغيرها مِن مَنافِع النَّباتِ والشَّجَر غير الأقوات كعَلَفِ البَهائِم وأداة الأبْنِيَة والسُّفُنِ والرِّحال والأواني وغيرها. ومَنافع النَّوْرِ مِن الأدوية والمنظَر البَهِيجِ الذي يُشَوِّق النّاظِرين. وحُسْن مَرائِي الشَّجَرِ وخِلْقَتِها البَدِيعَة شاهِدَة

لِفاطِرِها ومُبْدِعِها بِغايَة الحكمَة واللُّطْفِ [1]، فهذا بُرهانٌ قاطِعٌ على وحدانِيَّةِ اللهِ وقُدْرَتِه وقَهْرِه، وأنَّه المستَحِقُّ لِلعِبادَة وحدَه لا شَرِيكَ له، والمستَحِقُّ لِلحَمْدِ والشُّكْرِ.

2- النَّظَر في السَّماء وما فيها مِن الكائِنات:

قد يُراد بالسَّماء كلُّ ما عَلا وارْتَفَع، ويُراد بها في الغالِب السَّماء المبْنِيَّة والسَّبْعُ الطِّباق التي جعَلَها اللهُ سَقْفاً لِما تحتَها، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ﴾ [الأنبياء: 32].

وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۝١٥ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ۝١٦ ﴾ [نوح: 15 - 16].

وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤ ﴾ [الملك: 3 - 4].

فتَأَمَّل خَلْقَ السَّماءِ وارْجِع البَصَر فيها كَرَّةً بعد كَرَّة كيف تَراها مِن أعظَم الآيات في عُلُوِّها وارتِفاعِها وسعَتِها وقرارِها، لا عُمَدَ تحتَها ولا علاقَةَ فَوْقَها؛ بل هي ممسوكَةٌ بِقُدْرَةِ اللهِ الذي يمسِك السَّموات والأرضَ أن تَزْولا، ثم تَأَمَّل اسْتِواءَها واعتِدالها فلا صَدْعَ فيها ولا فطر ولا شَقّ، ثم تَأمَّل ما زُيِّنَت بِه السَّماء الدُّنيا مِن المصابِيح المتوَقِّدَة الجمِيلَة، وانظر إلى هذه الشَّمس المشرقة والقمر المنِير، ثمَّ تَأَمَّل في هذا الفَضاء الواسِع بين السَّماء والأرض يسِير فيه السَّحاب وتحلِّق فيه الطَّير بأجنحَتِها ما يمسِكُهُنَّ إلّا الله، وتحلِّق فيه السُّفُن الفَضائِيَّة والطّائِرات الفَخْمَة التي تُقِلّ الجماعات الكَبِيرَة مِن النّاسِ، وتحمل الأثقالَ العظيمة مِن الأمتِعَة، ولهذا يوجه الله الأنظار للتَّفكُّر في هذه الآيات الكونِيَّة العُلْوِيَّة، قال تعالى: ﴿ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ [الذاريات: 22].

وقال تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات: 47].

وقال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ [ق:6].

في الآية الأولى يخبِرُ أنَّ رِزْقَ العِباد في السَّماء، وهو المطَر الذي يُنْبِتُ اللهُ بِه الزَّرْعَ

(1) ينظر: مفتاح دار السعادة (ص ٢٣٦، و٢٤٣-٢٤٤).

والأشجار المثمِرَة. وفيها ما يُوعَدون مِن الجنَّة والثَّواب. وفي الآيَةِ الثّانية يخبِرُ سبحانَه عن السَّماء أنها مِن جملة مخلوقاته مع عِظَمِها وسعَتِها ممّا يدلُّ على عَظَمَةِ خالِقِها وقُوَّتِه وقُدْرَتِه. وفي الآية الثّالثة يحثّ على النَّظَرِ والتَّفَكُّر في السَّماء التي فوق العِباد وما فيها مِن إحكامِ البِناءِ وقُوَّتِه، وصَفاءِ اللَّون، وزِينَة الكَواكِب وسَلامَتِها مِن الشُّقوقِ والتَّصَدُّعِ مع سعَتِها وامتِدادِها. كلّ هذه الآيات في السَّموات تدلُّ على وحدانِيَّة الخالِقِ وعَظِيم قُدْرَتِه، واستِحقاقِه لِلعِبادَة وحدَه لا شريك له، فكما أنّه لا شريكَ له في خَلْقِ هذه الأشياءِ العَظِيمَة فلا يجوزُ أن يُشرَك معه أحَدٌ في عِبادته ممَّن ليس له خَلْقٌ ولا إبداعٌ ولا تَدْبِيرٌ، فهي بُرهانٌ قاطِع على وحدانِيَّةِ الله سبحانه وتعالى وعَظِيم سُلطانه. قال قسّ بن ساعِده [1] في إحدى خطبه: لَيْلٌ داج، ونهارٌ ساج، وسماء ذات أَبْراج، ونجومٌ تزهر، وبحارٌ تَزْخر، وجِبال مُرساة، وأرض مدحاة، وأنهار مجراة، إنَّ في السَّماء لخبراً، وإنَّ في الأرض لَعِبراً.

3- النَّظَر في خَلْقِ الإنسانِ وما فيه مِن العَجائِبِ:

يقول الله تعالى: ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات: 31].

ويقول تعالى: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم: 20].

ويقول تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ٧٨ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ٧٩ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ ٨٠ أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ٨١ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢ فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٨٣﴾ [يس: 78 - 83].

وقال تعالى: ﴿ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [التغابن: 3].

وقال تعالى: ﴿ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ [التين: 4].

في هذه الآيات يُوَجِّه اللهُ الإنسانَ إلى أن يَنْظُرَ في نَفْسِه وعَجِيبِ خِلْقَتِه وبَدِيع تَرْكِيبِه ممّا يدلُّ على عَظَمَةِ خالِقِه وعِلْمِه وقُدرَته وحِكْمَتِه، وأنّه المستَحِقُّ لِلعبادَةِ وحدَه لا شَريك له، وأنَّ

(1) مِن خُطباء العَرب في الجاهلية.

هذا الإنسانَ مخلوقٌ ضَعِيفٌ محتاجٌ إلى خالِقِه لا غِنى له عنه طَرْفَة عَيْنٍ، فكيف يَسْتَكبِر عن عبادَة رَبِّه، كيف يَتَجَبَّر ويَطْغَى ويَظْلِم ويَبْغِي ويجور، فَأَصْله مخلوقٌ مِن تُرابٍ حيث خُلِقَ آدَم أبو البَشَر – عليه السَّلام – الذي تَناسَلت منه هذه المجموعات البَشَرِيَّة الهائلة التي انتَشَرت في الأرض على امتِدادها، كيف تحوَّل هذا التُّراب إلى بَشَرٍ وتخلَّق منه كائِنٌ حَيٌّ عاقِلٌ مُفَكِّرٌ! وكيف نتَجَت عن هذا الكائِن تلك المجموعات الهائلة والقرون المتتالية! ثم مِن عجِيب أمر هذا الإنسان ألّا يَتَفَكَّر في نفسِه وعجِيب خِلْقَتِه. وحينما أُخْبِرَ أنَّ هناك حياةً بعد الموت وداراً غير هذه الدّار وأُمِرَ بالاستِعداد لها اسْتَبْعَد هذا الأمرَ وأنكَرَه. ونَفى أن يكون هناك بَعْثٌ ونُشُورٌ. وكيف يمكن هذا في نَظَرِه وقد فَنِيَت الأجسام وبَلِيَت العِظام وتَفَرَّقَت الأعضاء وتَفَكَّكت الأوصال. نَسِيَ خَلْقَه الأوَّل وإيجادَه مِن عَدَمٍ وأنَّ الذي قَدرَ على البَدْءِ قادِرٌ على الإعادَةِ مِن باب أولى.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الروم: 27].

يقول العلامة ابن القيم: وهذا كثير في القرآن يدعو العبدَ إلى النَّظَر والفِكْرِ في مَبْدَأ خَلْقِه ووَسطِه وآخِرِه؛ إذ نَفْسُه وخَلْقُه مِن أعظَم الدَّلائِل على خالِقِه وفاطِرِه. وأقرَب شَيْءٍ إلى الإنسانِ نَفْسُه، وفيه مِن العَجائِب الدّالَّة على عَظَمَةِ اللهِ ما تَنْقَضِي الأعمارُ في الوُقوفِ على بَعْضِه، وهو غافِلٌ عنه مُعْرِضٌ عن التَّفَكُّر فيه، ولو فَكَّر في نفسِه لَزَجَرَه ما يَعْلَم مِن عَجائِبِ خَلْقِها عن كُفْرِه، قال الله تعالى: ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ ﴾ [عبس: 17 - 22].

فلم يُكَرِّر سبحانَه على أسماعِنا وعُقولِنا ذِكْرَ هذا لِنَسْمَع لَفْظَ النُّطْفَةِ والعَلَقَة والمضْغَة والتُّراب، ولا لِنَتَكَلَّم بها فقط، ولا لِمُجَرَّد تَعرِيفِنا بذلك؛ بل لأمْرٍ وراءَ ذلك كلِّه وهو المقصود بِالخِطاب [1].

(1) مفتاح دار السعادة (ص ٢٠٥)، ومراده بما وراءَ ذلك عِبادَة اللهِ وحدَه حيث هو المتَفَرِّد بخلقِ هذا الإنسانِ الذي كَفَرَ بِرَبِّه.

وهذا الإنسان حين يُسأَل يعتَرف بأنَّ اللهَ هو الذي خلقه: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [الزخرف: 87].

ومع هذا هناك مَن يتَّجِه بِعبادَتِه إلى غير خالِقه ويُشْرِك مع الله مَن لا يملِك له نَفْعاً لا ضَرّاً، ومِن ثَمَّ كان جُرْمُه أشَدّ الجرمِ وذَنْبُه أعظَم الذَّنْب، ففي الحديث لَمّا سُئِلَ النَّبيُّ ﷺ:" أيّ الذَّنْبِ أعظَم ؟ قال: أن تجعَلَ للهِ نِدّاً وهو خَلَقَك " [1]. وهو مُعْتَرِفٌ أيضاً أن هؤلاء الشُّركاءِ الذين اتخذَهُم مع الله لا يملِكون له مَوْتاً ولا حَياةً ولا نُشُوراً.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الروم: 40].

لا أحَد مِنهم يَقْدِر ولو مِن باب المكابَرَةِ أو يَتَجَرَّأ على أن يَدَّعِي أن هذه المعبودات الوَثَنِيَّة تَقْدِر على الخلق والرّزق والإماتَة والإحياءِ، فلِماذا إذن يُشرِكونها مع اللهِ في العِبادَة مع قِيامِ البُرهان على بُطْلان عِبادتها.

4- ما جاءَ في القُرآنِ الكَرِيمِ:

ما جاء في القرآن الكريم مِن لَفْتِ النَّظَرِ إلى قُدرة الله تعالى على إيجاد الخلق في المادَّة الميِّتَة الجامِدة وإخراج الحيّ من الميِّت، ومِن بَدِيع خَلْقِ الله وعجِيب وباهِر قدرته سَريان الحياة في المواد الميِّتة، ومن ذلك:

أوّلاً: خَلْقُ آدَم مِن تُراب:

قال تعالى: ﴿ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [الحجر: 28].

وقال تعالى: ﴿ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴾ [ص: 71].

كيف تحوَّل هذا التُّراب وهذا الطين إلى لحم ودَم وعَظم وعروق وسمع وبصر إلى غير ذلك؟!

---

(1) رواه البخاري ومسلم.

ثانياً: خَلْقُ بَنِي آدَمَ مِن الماء:

قال تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝ ﴾ [الطارق: 5 – 6].

كيف خُلِقَ مِن هذا السّائل المهين هذا الإنسان العجِيب. قال الإمام ابن القيم رحمه الله:" فانظُر الآنَ إلى النُّطفَة بِعَيْنِ البَصِيرة، وهي قَطْرَةٌ مِن ماء مَهِين ضَعِيف مُسْتَقْذَر ولو مَرَّت بها ساعَة مِن الزَّمان فَسَدت وأَنْتَنَت، كيف استَخْرَجها رَبُّ الأرباب العليم القدير مِن بين الصُّلْبِ والتَّرائِب مُنقادَةً لِقُدْرَتِه مُطِيعَةً لِمَشِيئَتِه مُذَلَّلَة الانقِيادِ على ضِيقِ طُرُقِها واختِلاف مجارِيها إلى أن ساقَها إلى مُسْتَقَرِّها ومجمَعِها، وكيف جمع سبحانه بين الذَّكَر والأنثى وألقى المحبَّة بينهما، وكيف قادهما بسلسلة الشَّهوة والمحبَّة إلى الاجتِماع الذي هو سَبَبُ تخلِيقِ الوَلَدِ وتَكوِينِه، وكيف قدَّر اجتِماع ذَيْنك الماءَيْن مع بُعْدِ كلٍّ منهما عن صاحِبِه، وساقَهما مِن أعماق العُروق والأعضاء وجمعهما في مَوضِعٍ واحِدٍ وجَعَل لهما قراراً مَكِيناً لا يَنالُه هَواء فيفْسُد، ولا بَرْدٌ فيَجْمُد ولا عارِضٌ يَصِل إليه ولا آف تسلَّط عليه، إلى أن قال: فارجِع إلى النَّطْفَة وتَأَمَّل حالها وما صارت إليه ثانياً. وأنَّه لو اجتمع الإنس والجنّ على أن يخلقوا لها سمعاً وبصراً أو عقلاً أو قوة أو عِلماً أو روحاً، بل عَظْماً واحِداً مِن أصغَر عِظامِها؛ بل عِرقاً مِن أدَقِّ عُروقها؛ بل شَعْرَةً واحِدَة لَعَجَزوا عن ذلك؛ بل ذلك كلّه آثار صُنْع اللهِ الذي أَتْقَنَ كلَّ شَيْءٍ في قَطْرَةٍ مِن ماءٍ مَهِين " [1].

ثالثاً: إخراج الحَيِّ مِن المَيِّت:

قال تعالى: ﴿ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ [آل عمران: 27].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ [الأنعام: 95].

ومعناه أنَّ اللهَ سبحانه يخرِج الحيوانَ مِن النُّطفَة وهي مَيِّتَة، ويخرِج النُّطْفَةَ مِن الحيوان، وقيل:

(1) ينظر: مفتاح دار السعادة (ص**٢٠٥**، و**٢١٤**).

الفَرْخ مِن البَيْضَة، والبَيْضَةُ مِن الطَّير. وقيل: المؤمن مِن الكافِر، والكافِرَ مِن المؤمِنِ [1]. والكُلّ حاصِلٌ، وهو دَلِيلٌ على عَجِيبِ قُدْرَةِ اللهِ وإحاطَةِ عِلْمِهِ بِكُلِّ شَيْءٍ.

رابعاً: سَريان الحياةِ في المادَّة المَيِّتَة:

قال تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ [يس: 33].

وقال تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ [الحج: 5].

أليس وُجُودُ تُرْبَةٍ صالحة كَوُجود رَحِمٍ صالحةٍ، وماء المطَرِ كماءِ الفَحْلِ، وتخلُّق النُّطْفَة في الرَّحم كَتَخَلُّقِ البَذْرَة في التُّربَة. وخروج الزَّرْعِ حَيّاً نامِياً كخروجِ الوَلَدِ نامِياً، وهكذا إلى حَصاد الزَّرْعِ ومَوْتِ الإنسانِ، فهذان دَلِيلانِ عَقْلِيّان على صِحَّةِ البَعْثِ [2] وقُدْرَةِ اللهِ تعالى ووحدانِيَّتِه.

خامِساً: المَوجودات لا بُدَّ لها مِن مُوجِدٍ، ووحْدَة الخَلْقِ تَدُلُّ على وحدانِيَّة الخالِقِ:

النَّتِيجَة التي يُوصِل إليها النَّظَر في هذه المخلوقات هي الاستِدْلال بها على خالِقِها وعَظِيمِ سُلطانِه ووُجوبِ شُكْرِهِ وذِكْرِهِ وعِبادَتِهِ وحدَه لا شَريك له. فإنها ما خُلِقَت باطِلاً ولا أُوجِدَت عَبَثاً قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ [آل عمران: 190-191].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [ص: 27].

والأكثَرُ مِن الخلْقِ يَعتَرفونَ ويُصَرِّحون بأنَّ اللهَ وحدَه هو الذي خلق هذه المخلوقات لكنَّهم يعبدون معه غيرَه ممن لم يخلُق شيئاً.

قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾

---

(1) انظر: تفسير البغوي (١/٢٩١).

(2) أيسر التفاسير للجزائري (٣/١٤١-١٤٢).

[العنكبوت: 61].

وقــال تعــالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [يونس: 31 - 32].

فليس القَصْدُ مِن النَّظَرِ والاسْتِدلالِ هو الإقرار بِوُجودِ الخلّاقِ؛ لأنَّ الكفّار على اختلاف أجناسِهم ومِلَلِهم يُقِرُّون بِه، وإنما القَصْدُ إفراده بِالعِبادَة وتَرْكِ عِبادَة ما سِواه. وإذا كان هناك مَن تَظاهَر بإنكارِ الخالِقِ مُكابَرَةً وعِناداً وتَكَبُّراً فهذا لا قِيمَة له في حِسابِ البَشَرِيَّة العاقِلَة المفَكِّرَة؛ لأنَّه قد ألغَى عَقْلَه وسَفَّه نَفْسَه وصار في عِداد البُلْهِ والمعتوهِين، قال تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ [الطور: 35].

المعنى هل خُلِقوا مِن غيرِ خالِقٍ. هذا لا يُعقل؛ لأنَّ كلَّ مخلوقٍ لا بُدَّ له مِن خالِقٍ – قضية يَعرِفُها حتى الأطفال – وإن كان لا بُدَّ لهم مِن خالِقٍ فهل هم خَلَقوا أنفسَهم ؟ هذا محال؛ لأنَّ الشَّيءَ لا يَسْبِق وُجودَهُ، وإن كانوا عاجِزين عن خَلْقِ أنفُسِهم فهم عاجِزون عن خَلْقِ غيرِهِم مِن باب أولى ﴿ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ [الطور: 36]، لا، فَيَتَعَيَّن أنَّ لهم خالِقاً هو اللهُ سبحانه يجِب عليهم أن يخضَعُوا له ويعبُدوه وحدَه لا شَرِيكَ له.

فواعجبــاً كيــف يعصــى الإلــه ❊❊ أم كيــف يجحــده الجاحــد

ولله في كــلّ تحريكــة ❊❊ وتســكينة أبــداً شــاهِد

وفي كــلّ شــيء لــه آيــة ❊❊ تــدل علــى أنَّــه واحــد

ووحدة هذا الخلق وفق نِظامٍ واحدٍ كلٌّ يُؤَدِّي وظائِفَه المطلوبَة منه طائِعاً للذي: ﴿ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه: 50].

لا يَسْتَعْصِي شَيْءٌ منه عن أداءِ وَظِيفَتِه ولا يُؤَدِّي وَظِيفَة غيرِهِ ممّا يَدُلُّ على أنَّ خالِقَه ومُدَبِّرَه واحِد؛ إذ لو كان له عِدّة مُدَبِّرين لاختَلَّ نِظامُهُ تَبَعاً لاختِلافِ إراداتِ المدَبِّرين، قال تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: 22].

فدلَّت الآية على أنَّه لا يجوز أن يكون فيهما آلهة مُتَعَدِّدة؛ بل لا يكون الإله إلّا واحِداً، وعلى أنَّه لا يجوز أن يكون هذا الإله الواحِد إلّا الله سبحانه وتعالى. وإنَّ فسادَ السَّموات

والأرضِ يلزَم مِن كَوْنِ الآلهة فيها مُتَعَدِّدَة، ومِن كَوْنِ الإلَه الواحِد غير الله. وأنَّه لا صَلاح لهما إلّا بأن يكون الإلَه فيهما هو اللهُ وحدَه لا غيرُه. فإنَّ قِيامَه إنما هو بِالعَدْلِ، وبِه قامَت السَّموات والأرض [1] قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ﴾ [الرعد: 16].

وقال تعالى: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ [المؤمنون: 91].

فتأمَّل هذا البرهانَ الباهِر بهذا اللَّفظ الوَجِيزِ الظّاهِر، فإنَّ الإلَهَ الحقّ لا بُدَّ أن يكونَ خالِقاً فاعِلاً يُوصِل إلى عابِدِهِ النَّفْعَ ويَدْفَع عنه الضّرّ. فلو كان معه سبحانه إله آخَر يَشْرَكُه في مُلْكِه لكان له خَلْقٌ وفِعْلٌ، وحينَئِذٍ فلا يَرضَى تلك الشّرَكَةَ؛ بل إن قَدِر على قَهْرِ ذلك الشَّريكِ وتَفَرَّدَ بالملك والإلهيَّة دُونَه فَعَلَ. وإن لم يَقْدِر على ذلك انفَرَدَ بخلْقِه وذَهَب بذلك الخلْق، كما يَنْفَرِد مُلوكُ الدُّنيا بَعضُهم عن بَعْضٍ بملكِه إذا لم يَقْدِر المنفَرِد مِنهم على قَهْرِ الآخَرِ والعُلُوِّ عليه. فلا بُدَّ مِن أَحَدِ ثَلاثَة أُمورٍ:

1- إمّا أن يذهَب كلُّ إلهٍ بخلقِه وسُلطانِه.

2- وإمّا أن يَعْلُوَ بعضُهم على بَعْضٍ.

3- وإمّا أن يكونوا تحتَ قَهْرِ مَلِكٍ واحِدٍ يَتَصَرَّف فيهم كيف يشاء، ولا يتَصَرَّفون فيه، بل يكون وحدَه هو الإله وهم العَبِيد [2].

الاسئِلَة:

س1: ما وَجْه الاستِدلالِ بالخلْقِ على وحدانِيَّة الخالِق ؟. اذكُر الأدِلَّة على ذلك.

س2: أُذكُر شَيئاً مِن آياتِ الله الدّالّة على وحدانِيَّتِه في خَلْقِ الأرض وما فيها.

س3: أُذكر شيئاً مِن أدِلَّة وحدانِيَّة اللهِ في خَلْقِ السَّماء، وما المراد بالسَّماء ؟

س4: أُذكر شيئاً مِن أَدِلَّة وحدانِيَّة اللهِ في خلق الإنسان.

---

(1) شرح الطحاوية (ص **٢٥**).

(2) شرح العقيدة الطحاوية (ص **٢٣-٢٤**).

س5: أُذكر وَجْهَ الاستِدلالِ بخلْقِ آدَم وخَلْقِ بَنِيه على وحدانِيَّة اللهِ، وشيئاً مِن الآيات التي وَرَدَت بذلك.

س6: ما معنى إخراجِ الحيِّ مِن الميِّتِ، وإخراج الميِّتِ مِن الحيّ ؟، وما وَجْه الاستِدلالِ بذلك على وحدانِيَّة اللهِ تعالى ؟

س7: ما وَجْهُ الاستِدلالِ بإِحْياءِ الأرضِ على قُدْرَةِ اللهِ على إحياء الأموات يوم القِيامَة ؟

س8: أُذكر الاسْتِدلالَ على أنَّ المخلوقات لا بُدَّ لها مِن خالِقٍ ومُوجِدٍ في العَقْلِ والنَّقْلِ.

الفَصْلُ الثّالِث

بُرهان اتِّساقِ النِّظامِ الكَوْنِيِّ

بَراهِين الإرادَةِ والنِّظامِ والإتِّساق الكَوْنِيِّ، والرَّدّ على الطَّبائِعِيِّين والقائِلِينَ بِالمُصادَفَةِ:

كلُّ نِظامٍ مُرَكَّب مُتناسِق لا يمكِن أن يحدُث مُصادَفَةً مِن غير قَصْدٍ كما يُقولُه الطَّبائِعِيُّون والقائِلون بِالمُصادَفَةِ.

والطَّبائِعِيُّون هم الذين يُنكِرون وُجَودَ الخالِق، ويَنسِبون وُجودَ الأشياءِ إلى الطَّبِيعَة، والقائِلون بِالمصادَفَة مثلهم، يُنكِرون وُجودَ الخالِق ويَنسبون وُجودَ الأشياء إلى المصادَفَة [1]. وكلاهما مُتَخَبِّطٌ، فالخَلْقُ ليس هو وَلِيدُ المصادَفَةِ ولا نِتاج الطَّبِيعَة كما يقولُه الملاحِدَة؛ لأنَّ كُلَّ مُحْدَثٍ لا بُدَّ له مِن محدِث، وكلُّ مخلوقٍ لا بُدَّ له مِن خالِقٍ، إذ لا يُعقَل وُجُودُ مخلوقٍ دون خالِقٍ، ولا أَثَر دون مُؤَثِّرٍ، فالصَّبِيُّ لو ضُرِبَ لالْتَفَت يَنْظُر مَن الذي ضَرَبَه، ولو قِيلَ له لم يَضْرِبْك أَحَدٌ لم يَقْتَنِع؛ بل يَظَلُّ يَبْكِي حتَّى يَنْتَقِمَ ممَّن ضَرَبَه. ولهذا يحكى عن الإمام أبي حَنِيفَة – رحمه الله – أنَّ قَوْماً أرادوا البَحْثَ معه في تَقْرِير تَوْحِيد الرُّبُوبِيَّة، فقال لهم: أخبروني قبل أن نَتَكَلَّم في هذه المسألَة عن سَفِينَة في دَجْلَة تَذْهَب فَتَمْتَلِئ مِن الطَّعامِ والمتاعِ وغيرِهِ بِنَفْسِها وتَعود بِنَفْسِها فَتُرسِي بِنَفْسِها وتُفْرِغ وتَرْجِع، كلّ ذلك مِن غيرِ أن يُدَبِّرَها أَحَدٌ. فقالوا: هذا محالٌ، لا يمكِن أبداً، فقال لهم: إذا كان هذا محالاً في سَفِينَة فكيف في هذا العالم كلِّه عُلوِّهِ وسُفْلِه ؟! [2].والمنكرون لِوُجودِ الخالِق مُضْطَرِبون في جوابهم عن هذا البُرهان القاطِع: هو أنَّنا نُشاهِد الأشياءَ تحدُث شيئاً فشيئاً، وكلُّ محدَثٍ لا بُدَّ له مِن محدِثٍ، فتارَةً يقولون: هذه الأشياء تحدِثُها الطَّبِيعَة التي هي عِبارَة عن ذاتِ الأشياءِ مِن النَّباتِ والحيوانات والجمادات. فهذِه الكائنات عندهم هي الطَّبيعَة، وهي التي أوجَدَت نفسَها. أو يقولون: هي عِبارَة عن صِفاتِ الأشياء وخصائِصِها مِن حَرارة وبُرودَةٍ ورُطوبَةٍ ويُبُوسَةٍ ومَلاسَةٍ وخُشُونَةٍ. وهذه القابِلِيّات مِن حَرَكَةٍ

---

(1) أي: أنَّ الأشياءَ تحدُثُ نَتِيجَةَ اجْتِماعِ العَناصِرِ السّالِبَة والموجبَة ونحوِها، وتَفاعُلِها بِنَفْسِها، لا بِسَبَبِ تَدبِيرٍ وارِدٍ مِن خالِقٍ لها ومُقَدِّرٍ لِوُجُودِها في نَظَرِهِم.

(2) شرح العقيدة الطحاوية (ص ٢١).

وسكونٍ ونموٍّ وتَزاوُجٍ وتَوالُدٍ. هذه الصِّفات وهذه القابِلِيّات هي الطَّبِيعَة بِزَعْمِهِم، وهي التي أوجدَت الأشياء، وهذا قولٌ باطِلٌ على كلا الاعتِبارَيْنِ؛ لأنَّ الطَّبِيعَة بِالاعتِبار الأوَّل على حَدِّ قولهم تَكون خالِقَةً ومخلوقَةً، فالأرضُ خَلَقَت الأرْضَ، والسَّماءُ خَلَقَت السَّماءَ وهَكَذا. وهذا مُستَحِيلٌ، وإذا كان صُدُورُ الخلْقِ عن الطَّبِيعَة بهذا الاعتِبار مُسْتَحِيلاً فاستِحالَتُه بِالاعتِبار الثّاني أشَدّ استِحالَةً؛ لأنَّه إذا عَجزَت ذاتُ الشَّيءِ عن خَلْقِه فَعَجْزُ صِفَتِه مِن باب أولى؛ لأنَّ وُجودَ الصِّفَةِ مُرْتَبِطٌ بِالموصوفِ الذي تقوم به. فكيفَ تخلُقُه وهي مُفْتَقِرَة إليه. وإذا ثَبَت بِالبُرهانِ حُدوث الموصوفِ لَزِمَ حُدوث الصِّفَة، وأيضاً فالطَّبِيعَة لا شُعورَ لها، فهي آلَةٌ محضَةٌ فكيف تصدُر عنها الأفعالُ العَظِيمَة التي هي في غايَةِ الإبْداعِ والحِكْمَة والإتْقان. فإنَّك إذا نَظَرْتَ إلى هذا الكَوْنِ المَنظَّمِ بِأفلاكِهِ وأرْضِهِ وسمائِهِ وسَيْرِ المخلوقاتِ فيه بِهذِهِ الدِّقَّةِ والتَّنظِيمِ العَجِيبِ تَبَيَّن لك أنَّه لا يمكِن أن يَصْدُرَ إلّا عن خالِقٍ حَكِيمٍ هو الله، قال تعالى:﴿ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ﴾ [الرعد: 16].

وقد أعلَن اللهُ أنَّه هو الخالِق وحدَه وتحدَّى هؤلاءِ الملحِدِينَ والمشرِكِين بقوله: ﴿ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [لقمان: 11].

وبقولـه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴾ [فاطر: 3].

وبقولـه: ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ٧١ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٧٢ ﴾ [القصص: 71 - 72].

وبقولـه: ﴿ أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ٦٠ أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٦١ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٦٢ أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٦٣ أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٦٤ ﴾ [النمل: 60 - 64].

ولَمَا قال النَّمْرُود: ﴿ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ﴾ قال إبراهيم -عليه السلام-: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: 258].

فانقطَعَت حُجَّة المعانِدِين، وقامَت حُجَّةُ اللهِ على الخلق أجمعين، قال بعض العَلماء في الرَّدِّ على أصحابِ القَوْلِ بِنِسْبَة إيجادِ الأشْياءِ إلى الطَّبِيعَة [1]:

قل للطبيب الفيلسوف بزعمه ❊❊ إن الطبيعة علمها برهاني
أين الطبيعة عند كونك نطفة ❊❊ في البطن إذا مشجت به الماءان
أين الطبيعة حين عدت عُليقة ❊❊ في أربعين وأربعين ثوان
أين الطبيعة حين كونك مضغة ❊❊ في أربعين وقد مضى العددان
أترى الطبيعة صورتك مصوراً ❊❊ بمسامع ومناظر وبنان
أترى الطبيعة أخرجتك منكساً ❊❊ من بطن أمك واهي الأركان
أم فجرت لك باللبان ثديها ❊❊ فرضعتها حتى مضى الحولان
أم صيرت في والديك محبة ❊❊ فهما بما يرضيك مغتبطان

ممّا يُشْبِه قَوْلَ أهلِ الطَّبِيعَة نِسْبَة بعضِ أفعالِ اللهِ تعالى إلى بعض مخلوقاتِه، كَنِسْبَة نُزولِ الأمطارِ إلى المناخات والمنخَفِضات الجوِيَّة أو إلى النُّجوم. وهو ما يسمَّى بالاسْتِسقاء بِالأنواءِ، وفي الصَّحِيحَين مِن حَدِيث زيد بن خالد ﷺ قال:" صَلّى لنا رسولُ اللهِ ﷺ صَلاةَ الصُّبْحِ بالحدَيْبِية على إثْر سماءٍ كانت مِن اللَّيل، فلمّا انصَرَف أقبَلَ على النّاس فقال: هل تدرون ماذا قال رَبُّكم ؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: قال أصبَح مِن عِبادِي مُؤْمِنٌ بي وكافِر؛ فأمّا مَن قال: مُطِرْنا بِفَضْلِ اللهِ ورَحْمَتِه فذلك مُؤمِنٌ بي، كافِرٌ بالكواكِب. وأمّا من قال: مُطِرْنا بِنَوْءِ كذا وكذا فذلِك كافِرٌ بِي، مُؤْمِنٌ بِالكَواكِبِ ". قال في فتح المجيد [2]: دلَّ الحديثُ على أنَّه لا يجوز لأحَدٍ أن يُضِيفَ أفعالَ اللهِ إلى غيرِه، ولو على سَبِيلِ المجاز. انتهى. ونِسْبَة أفعالِ اللهِ إلى غيرِه

(1) مِن النونية القَحطانِيّة.

(2) انظر: فتح المجيد (ص ٢٦٤).

على نَـوْعَيْنِ: النَّـوع الأوّل: أن ينسِبَها إلى غيرِه نِسْبَةَ إيجادٍ، كأن يعتَقِدَ أنَّ نزولَ المطر بِفِعْلِ النُّجوم وتَأثِيرِها. وهذا شِرك أكبر وكُفر بالله تعالى يخرج مِن الملَّة؛ لأنَّه جَعَل للهِ شَريكاً في أفعالِه. النَّوع الثّاني: أن ينسِبها إلى غيرِ اللهِ مجازاً وتساهُلاً في التَّعبِير مع اعتِقادِه أنها أفعالُ اللهِ وحدَه، فهذا محرَّمٌ وشِرْكٌ أصغَر، وكُفْرٌ أصغَر لا يخرِج مِن الملَّة؛ لأنَّه لم يَعْتَقِد تَأثِيرَ النَّوْءِ بإنزالِ المطَرِ فيكون مِن كُفْرِ النِّعَمِ لِعَدَم نِسْبَتِها إلى الذي أنعَم بها.

ومثل هذا أيضاً: نِسْبَة الحوادِثِ إلى الدَّهْرِ ومَسَبَّة الدَّهْرِ مِن أجلِ ذلك، قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: 24].

أي: ما ثَمَّ إلّا هذِه الدّار يموت قَوْمٌ ويَعِيشُ آخَرون، وليس هناك حَياةٌ أُخرى نُبْعَث إليها بَعْدَ الموتِ، ونَسَبوا إهلاكَهُم إلى الدَّهْر ولم يَنسِبوهُ إلى اللهِ، وهذا قَوْلُ الفَلاسِفَة الدَّهريَّة وبعض مُشْرِكي العَرَبِ، ومنه مَن يَسُبُّ الدَّهْرَ؛ لأنَّه يَزْعُم أنَّه هو الذي يُصيبُه بِالمصائِب والمكارِه. وفي الصَّحيحين عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:" يقول الله تعالى يُؤذِيني ابنُ آدَم يَسُبُّ الدَّهْرَ وأنا الدَّهْرُ بِيَدي الأَمْرُ أُقَلِّبُ اللَّيلَ والنَّهارَ "، وفي رواية:"لا تَسُبُّوا الدَّهْرَ فإني أنا الدَّهْر". قال البَغوي في شَرْحِ السُّنَّة: ومَعناه أنَّ العَرَبَ كان مِن شأنها ذَمّ الدَّهْرِ، أي: سَبُّه عند النَّوازِلِ؛ لأنهم كانوا يَنْسِبون إليه ما يُصِيبُهُم مِن المصائِبِ والمكارِه. فيقولون: أصابَتْهُم قَوارِع الدَّهْرِ وأبادَهُم الدَّهْر. فإذا أضافوا إلى الدَّهْرِ ما نالهم مِن الشَّدائِد سَبّوا فاعِلَها، فكان مَرْجِع سَبِّها فاعِلَها، فكان مَرْجِع سَبِّها إلى اللهِ عزَّ وجلَّ؛ إذ هو الفاعِل في الحقيقَةِ لِلأمُورِ التي يُضِيفونها. فنُهُوا عن سَبِّ الدَّهْرِ؛ لأنَّ فاعِلَ هذه الأُمورِ التي سَبّوا الدَّهْرَ مِن أجلِها هو الله سبحانه وتعالى. فتَكون مَسَبَّتُهُم لِلدَّهْرِ مَسَبَّةٌ للهِ تعالى؛ لأنَّ الدَّهْرَ ليس له فِعْلٌ في هذِه الأُمور، وليس معنى الحديث أنَّ الدَّهْرَ مِن أسماءِ الله تعالى، ولكنَّ معناه كما بَيَّنَه الحديث أنَّ اللهَ هو الذي يُقَلِّب اللَّيلَ والنَّهارَ، ويجري فيهِما ما يحبُّه النّاسُ وما يَكْرَهُونَه. والله أعلم [1].

ومثل ذلك: ما يُنْسَب إلى البُروجِ مِن الحظُوظِ والنُّحُوسِ والرِّبْحِ والخسارَة كما يُنْشَر في بعض المجلّاتِ مِن الأُمورِ الجاهِلِيَّة. ومثل هذا: سَبّ الرِّيحِ فقد وَرَدَ النَّهْيُ عنه في قوله ﷺ:" لا

(1) انظر: فتح المجيد (ص ٣٥٧-٣٥٨).

تَسُبُّوا الرِّيحَ، فإذا رأيتُم ما تَكرَهُون فقولوا: اللَّهمَّ إنّا نسأَلُك مِن خَيْرِ هذهِ الرِّيح، وخَيْرِ ما فِيها، وخَيْرِ ما أُمِرَت بِه، ونَعوذُ بِك مِن شَرِّ هذه الرِّيحِ، وشَرِّ ما فِيها، وشَرّ ما أُمِرَت بِه " صَحَّحَه التِّرمذِيّ.

وذلك لأنَّ الرِّيحَ تهبُّ بِأَمْرِ اللهِ، فَمَسَبَّتُها مَسَبَّة لِلذي أمرَها وسَخَّرَها، فمَسَبَّتُها مِن جِنْسِ مَسَبَّةِ الدَّهْرِ. وبالجملَة: تحرُمُ نِسْبَةُ الحوادِثِ إلى الظَّواهِرِ الكَوْنِيَّة، وقد تكون كُفْراً، وقد تكون شِركاً أكبَر أو أصغَر بحسَبِ الاعتِقادِ في ذلك.

الأسئِلَة:

س1: ما وَجْه الاستِدلالِ بِوَحْدَةِ الخلق على نِظامٍ واحِدٍ على وحدانِيَّةِ الخالق ؟ وما الدَّليل على ذلك مِن القرآن ؟

س2: كيف تَرُدُّ على مَن قال بأنَّ هذه الموجودات وَلِيدَة المصادَفَة أو مِن نِتاجِ الطَّبِيعَة ؟

س3: ما الدَّليل على انفِراد اللهِ بالخلْقِ، وأنَّ غيرَه لم يخلُقْ شَيئاً ؟

الفَصْلُ الرّابع

بُرْهانُ الكَمالِ الإلَهِيِّ وغِناه عن كُلِّ مَخلوقٍ، وفَقْر كُلِّ مَخلُوقٍ إليه

مِن بَراهِين التَّوحِيدِ الكَمالُ الإلهيُّ. وذلك بأن يكونَ المعبودُ كامِلاً كَمالاً مُطلَقاً، غَنِيّاً عمّا سِواه، وكلُّ ما سِواه محتاجٌ إليه. وهذا لا يَنطَبِق إلّا على اللهِ وحدَه. فهو الكامِل بِذاتِه وأسمائِه وصِفاتِه وأفعالِه، وما سِواه ناقِصٌ مِن كلِّ وَجْهٍ، وهو الغَنِيُّ عمّا سِواه، وما سِواه محتاجٌ إليه. إذاً فاللهُ سبحانَه هو المستَحِقُّ لِلعِبادَةِ وَحْدَه لِكمالِهِ وغِناه، وما سِواه لا يَسْتَحِقّ مِن العِبادَة شيئاً لِنَقْصِه وفَقْرِه؛ لأنَّ الكامِلَ الغَنِيَّ يملِك ما يُطْلَب مِنه ويَقْدِر عليه، والنّاقِصُ الفَقِيرُ لا يملِك ما يُطلَب مِنه ولا يَقْدِر عليه، وقد وَرَدَ ذِكر هذا البُرهان في آياتٍ كثِيرَةٍ مِن القرآن منها:

1- قولـه تعـالى: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾ [فاطر: 13].

فمِن كمالِه الإلهيِّ أنَّه مالِك الملك، ومِن نَقْصِ ما سِواه عَدَم الملكِيَّة لأحْقَرِ الأشْياء.

2- قوله تعالى في سورة الإخلاص التي تَعْدِل ثُلُثَ القرآن: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤ ﴾ [الإخلاص: 1 - 4]، فهو (الأحد) الذي انحصَرت فيه الأحدِيّة، فهو الأحد المتفرِّد بِالكمالِ، الذي له الأسماء الحسنى والصِّفات الكاملة العليا والأفعال المقدَّسة. الذي لا نظيرَ له ولا مِثْلَ. ﴿ ٱلصَّمَدُ ﴾ أي المقصود في جميع الحوائِج، فأهل العالم العُلْوِيِّ والسُّفْلِيِّ مُفْتَقِرون إليه غايَة الافتِقار، يسألونَه حَوائِجَهُم، ويَرغبون إليه في مُهِمّاتِهِم؛ لأنَّه الكامِل في أوصافِه، العَلِيمُ الذي قَد كَمُلَ في عِلْمِهِ، الحلِيم الذي كَمُلَ في حِلْمِه، الذي وَسِعَت رَحْمَتُه كلّ شَيْءٍ.

ومِن كمالِه أنَّه ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ فكمالُ غِناه عن غَيرِهِ.

﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ أي: لا مَثِيلَ له في أسمائِه ولا في صفاتِه، ولا في أفعالِه.

تَبارَكَ وتعالى [1]. فهو الغَنِيُّ عن الوَلَدِ والوالِد والشُّركاءِ لا شَبِيهَ له.

3- وقولـــه: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [البقرة: 255].

وهذه أعظَم آيَةٍ في كتابِ الله عزَّ وَجَلَّ لِما تَشْتَمِل عليه مِن ذِكْرِ صِفاتِ اللهِ الكامِلَة، ونَفْيِ النَّقائِصِ عن اللهِ سبحانه وتَعالى لِغِناه التّامّ وفَقْرِ جميعِ المخلوقات إليه، فأخبَر أنَّه (ٱللَّهُ) الذي له جميع مَعاني الأُلُوهِيَّة فلا يَسْتَحِقّ العِبادَة إلّا هو، (ٱلۡحَيُّ) الذي له جميع مَعاني الحياة الكامِلة مِن السَّمع والبَصر والقُدرة والإرادة وغيرها مِن الصِّفات الذّاتِيَّة، (ٱلۡقَيُّومُ) الذي قام بِنَفْسِه واسْتَغنى عن جميع مخلوقاتِه، وأقامَ غيرَه مِن جميع الموجودات فأَوْجَدَها وأبقاها وأمَدَّها بجمِيعِ ما تحتاج إليه في وُجودِها وبَقائِها. وهذا يدخل فيه جميع صِفاتِه الفِعْلِيَّة، (لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ) وهي النُّعاسُ، (وَلَا نَوۡمٞ) وذلك لِكمالِ حَيَاتِه وقَيُّومِيَّتِه؛ لأنَّ السِنَةَ والنَّومَ مِن مَظاهِرِ العَجْزِ والضَّعْفِ. ثم أخبَر عن كَمالِ مُلكِه فقال:(لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ)، وعن كَمالِ سُلطانِه وَهَيْبَتِه فقال:(مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ)، وعن كَمالِ عِلْمِه فقال:(يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ) مِن الأُمورِ المستَقْبلَة (خَلۡفَهُمۡ) مِن الأمور الماضِيَة. وأخبَر أنَّ الخلقَ لا يَعلمون إلّا ما عَلَّمَهُم:(وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ)، فهم محتاجون إليه في تعليمِهِم ما يجهَلون. ثم أخبَر عن عَظَمَتِه وجَلالِه حيث (وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ) وقد جاء أنَّ الكُرْسِيَّ مَوْضِعُ القَدَمَيْنِ، وهو دون العَرْشِ، وأخبَر عن حِفْظِه لِلسَّمواتِ والأرضِ مِن الاختِلالِ والزَّوالِ، وأنَّ ذلك لا يُثْقِلُه ولا يَشُقُّ عليه لِكمالِ قُدْرَتِه وسعَةِ عِلْمِه فقال:(وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَا) كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَا ﴾ [فاطر: 41].

ثم قال:(وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ) الذي له عُلُوّ الذّاتِ فَوْقَ المخلوقاتِ، وعُلُوّ القَهْرِ، (ٱلۡعَظِيمُ) الجامِع لصِفاتِ العَظَمَةِ والكِبْرياءِ والكَمالِ والبَقاءِ.

وغير ذلك في القُرآن كثِير، كما أنَّه سبحانَه يذكر فَقْرَ المخلوقات إليه وبُطلانَ عِبادَتها،

(1) انظر: تفسير ابن سعدي (٦٨٦/٧).

كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴾ [فاطر: 15].

وقولـــه: ﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴾ [النحل: 73].

وقولـــه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [العنكبوت: 17].

وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ﴾ [النحل: 20].

وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡ﴾ [الأعراف: 194].

فكيف يُسوَّى النّاقِصُ بالكامِل! وكيف يُسَوّى العاجِز بالقادِر! وكيف يُسَوَّى العَبْدُ المخلوق بالخالِق! ولهذا يُدْرِك المشركون يوم القيامَة إذا دخلوا النّارَ ضَلالهم في هذه التَّسْوِيَةِ حيث يقولون لمعبودِيهِم مِن دونِ اللهِ: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء: 97 - 98].

4- ومن أدِلَّة كَمالِه: إتْقانُ الخَلْقِ وإحكامُهُ: قال تعالى: ﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖ﴾ [الملك: 3].

وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ [السجدة: 7].

وقال تعالى: ﴿ صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍ﴾ [النمل: 88].

وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه: 50].

فإتقانُ الخلق وإحكامُه وانضِباطُه يدلُّ على كمالِ الخالِق سبحانَه وتعالى، وأنَّه هو المستَحِقّ لِلعِبادَة وحدَه دون سِواه.

الأسئِلَة:

س1: أُذكر نموذجاً مِن الأدِلَّة القُرآنِيَّة على كَمالِ الخالِق وغِناه.

س2: ما وَجْهُ الاستِدلالِ بِكَمالِ الخَلْقِ وغِناه على وُجوبِ إفرادِهِ بالعِبادَة ؟

الباب الثالث

شُمولُ العِبادَة

ويتكوَّن من الفصول الآتية:

الفصل الأول: أنّ التَّوحيد المطلوب هو إفراد الله بالعبادة.

الفصل الثاني: بيان معنى العِبادة.

الفصل الثالث: شمول العِبادة لكلّ ما يقوم عليه المجتمع المسلم في عقيدته وحُكْمِه وسُلوكه وأخلاقه.

الفصل الرابع: الرَّدّ على الذين يرون عَزْل الدِّين عن الدَّولة، وأنّ الدِّين في نظرهم محصور في الشَّعائر التعبُّديَّة.

الفصل الخامس: المنهج الإلهيّ لِنظامِ الحياةِ هو مَنهَجُ الإيمان بالله، وما سِواه فهو منهج جاهِليّ.

الفَصْلُ الأوَّل

التَّوحِيدُ المَطلوبُ هو إفرادُ اللهِ بِالعِبادَةِ

عرفنا – فيما سبق – أنَّ التَّوحيدَ ثَلاثَة أنواعٍ: توحيد الرُّبوبِيَّة، وتوحيد الأُلوهيَّة، وتوحيد الأسماء والصِّفات. فتوحيد الرُّبوبِيَّة: هو إفراد الله تعالى بأفعالِه، كالخلق والرّزق والإحياء والإماتة وجلب الخير ودفع الشَّرّ. وتوحيد الألوهِيَّة: هو إفراد الله تعالى بأفعالِ العباد التي يقومون على وَجْهِ التَّقَرُّب والتَّعَبُّد، كالدُّعاء والنَّذر والنَّحر والخوف والرَّجاء والرَّغبة والرَّهبة والإنابة والتَّوكُّل وغير ذلك مِن أنواع العبادة المشروعة. وتوحيد الأسماء والصِّفات: هو الإقرار بأسماء الله وصِفاته التي سمّى بها وَوَصَف بها نفسَه، أو سمّاه ووصَفَه بها رسوله ﷺ.

فأسماؤه كالحيِّ القيُّوم السَّميع البصير العليم القدير الخبير، وصِفاته كالسَّمع والبصر والوجه واليد والعلم والقدرة والإرادة إلى غير ذلك مما ثبت في الكتاب والسُّنَّة.

فالنَّوع الأول مِن التَّوحيد وهو توحيد الرُّبوبِيَّة قد أقرَّ بِه الكفّار ولم يدخلهم في الإسلام؛ لأنَّ الإقرارَ بِه وحدَه لا يكفي، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: 9].

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: 86-87].

وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف: 87].

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: 31].

والتَّوحيد المطلوبُ والذي يُدخِل في الإسلام هو توحيد الأُلوهِيَّة، وهو إفراد الله بالعبادة، وهذا هو الذي جَحَدَه المشركون وبَعَث اللهُ الرُّسُلَ للدَّعوَةِ إليه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: 36].

وهذا النَّوع من التَّوحيد هو الذي شُرِعَ الجهاد مِن أجله، قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: 39].

وهو الذي أمَرَ اللهُ به عبادَه:﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة: 5].

فإن قيل: ما وَجْهُ ذِكْرِ توحيد الرُّبوبِيَّة في القرآن مع أنَّ المطلوبَ هو التوحيد الألوهية.

قيل: توحيد الرُّبوبِيَّة إنما يُذكَر في القرآن مِن أجل الاستِدلال به على توحيد الأُلُوهِيَّة؛ لأنَّه مُسْتَلْزِمٌ له، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٢ ﴾ [البقرة: 21 -22].

وهذا التَّوحيد هو معنى لا إله إلّا الله – فإنَّ الإلَهَ معناه المعبود – أي: لا معبودَ بحقٍّ إلّا الله. وما سِواه فعِبادَتُه باطِلة، قال تعالى:﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴾ [الحج: 6].

وبهذا يظهَر غَلَط مَن ظَنَّ أنَّ معنى لا إله إلّا الله هو الإقرارُ بِأنَّ اللهَ هو الخالِق الرّازق والمدبِّر، فيُفَسِّر هذه الكلمة بِتَوْحِيد الرُّبوبِيَّة، والدَّليل على بُطلان هذا التَّفسِير لمعنى لا إله إلّا الله أنَّ قاتَل المشركين وهُم يُقِرُّون بِتوحِيد الرُّبوبِيَّة. وقال:(أُمِرت أن أقاتِلَ النّاسَ حتى يشهدوا ﷺالنَّبيَّ أن لا إله إلّا الله، وأنَّ محمّداً رسول الله) الحديث [1]. فدلَّ على أنَّ معنى لا إله إلّا الله ليس هو الإقرار بالرُّبوبِيَّة؛ لأنَّ الإقرارَ بِالرُّبوبِيَّة مَوْجُودٌ ولا يَكادُ أحَدٌ يُنْكِرُه. ولو كان هو معنى لا إله إلّا الله لم يَسْتَكبِر المشركون عن قول هذه الكَلِمَة، قال تعالى: ﴿ إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ ٣٥ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ ٣٦ ﴾ [الصافات: 35-36].

إذ كيف يَستكبِرون عن شَيْءٍ يُقِرُّون بِه. وكذلك يخطئ بعض الكُتّاب المعاصِرين حيث يفسِّرون لا إله إلّا الله بالحاكِمِيَّة. فيقولون معناها: لا حاكِمِيَّة إلّا لله، وهذا خطأ؛ لأنَّ الحاكِمِيَّة جُزْءٌ جانِبِيٌّ مِن مَعناها الذي هو إثباتُ العُبودِيَّة للهِ ونَفْي الشِّرْكِ.

الأسئِلَة:

س1: ما التَّوحيدُ المطلوبُ مِن العبادِ ؟، وما الدَّليلُ على ذلك ؟

---

(1) متَّفق عليه.

الفَصْلُ الثّاني

مَعْنَى العِبادَةِ

العِبادَةُ: هي الذُّلُّ والخضُوعُ مع المحبَّةِ. فقد عَرَّفَها بعض العلماء بأنها: غايَةُ الذُّلِّ مع غايَةِ الحبِّ، وعرَّفها شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – بأنها: اسمٌ جامِعٌ لِكُلِّ ما يحبُّه الله ويرضاه مِن الأعمالِ والأقوالِ الظّاهِرَةِ والباطِنَة. وقد خلق الله الخلقَ مِن أجلِها، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56].

ولا تكون العِبادَة صَحِيحَةً إلّا إذا كانت خالِصَة للهِ ليس فيها شِرْكٌ، وكانت مُوافِقَةً لِما شَرَعَه. فمَن عبد الله مخلِصاً له العبادَةَ على وفق ما شَرَع فهو الموَحِّد. ومَن لم يعبده كان مُتَكَبِّراً، ومَن عبدَه وعَبَدَ معه غيره كان مُشركاً. ومَن عَبَدَه على غير ما شَرع كان مُبْتَدِعاً محرِّفاً. فالعِبادَة لا تكون صحيحةً مقبولَةً إلّا بِشَرطين: الإخلاصُ للهِ تعالى، والمتابَعة للرَّسولِ ﷺ، قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 112].

ومعنى:(أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ) أي: أخلَصَ عَمَلَه مِن الشِّرْكِ.

ومعنى:(وَهُوَ مُحْسِنٌ) أي: مُتَّبِعٌ لِلرَّسولِ ﷺ، فلم يكُن في عَمَلِه بِدْعَةٌ ولا خُرافَةٌ.

الأسئِلَة:

س1: عرِّف العِبادَة. وبيِّن مَكانَتَها، وشُروطَ صِحَّتِها.

الفصل الثّالِث

شُمُولُ العِبادَةِ لِكُلِّ ما يَقُوم عليه المُجْتَمَعُ المُسْلِم

العِبادَة – كما سبق – تشمَل كلَّ شُؤونِ حياة المسلمين في العقيدة. بحيث تكون عقِيدَة المسلم خالِصَة للهِ سَلِيمَةً مِن الشِّرك، ومِن المبادِئ الهدّامَة والأفكار المنحرِفَة. وفي الشَّعائِر التَّعَبُّدِيَّة بحيث تكون وفْقَ المنهَج الذي شَرَعَه اللهُ، سَلِيمَةً مِن البِدَع والخرافات. قال ﷺ:(مَن أحدَثَ في أمرِنا هذا ما ليس منه فهو رَدٌّ) [1].

وقال أيضاً:(مَن عَمِلَ عَمَلاً ليس عليه أَمْرُنا فهو رَدٌّ)[2]، وفي الحكمِ بين النّاس قال تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾[المائدة: 49].

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [النساء: 59].

وقال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ [النساء: 65].

فتَحكِيمُ الشَّرِيعَة عِبادَة للهِ وتوحِيدٌ له، وتحكِيمُ النُّظُمِ والقَوانِين البَشَرِيَّة كُفْرٌ وشِرْكٌ، قال تعالى: ﴿ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [المائدة: 44].

وقال تعالى: ﴿ أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: 21].

وطاعَة المخلوقِ في تحليلِ الحرام وتحريم الحلالِ شِرْكٌ أيضاً، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ﴾ [الأنعام: 121].

وقال تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة: 31].

ولا يكفِي أن يكونَ المقصودُ مِن تحكيمِ الشَّريعة إقامَة العَدْلِ وتَوْفِير الأَمْنِ فقط؛ بل لا بُدَّ

---

(1) رواه البخاري ومسلم.

(2) رواه مسلم.

أن يكون المقصود الأعظَم والأساسِيّ هو التَّعَبُّد للهِ بذلك، وطاعَة أمرِه، وقَبُول شَرِيعَتِه. كالجهادِ والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، وكذلك العِبادَة تشمَل سُلوكَ المسلِم مع بَني مجتَمَعِه، وتخلّقِه بأخلاقِ الإسلام مِن بِرِّه بِوالدَيْه، وصِلَتِه لأرحامِه، ومُواساتِه لِلفُقَراء والمحتاجِين، ومحبَّة الخيرِ لإخوانِه وإعانَتِهم على مَصالحهم، وكفّ أذاه عنهم، والإحسان إلى الجارِ واليَتِيم والمسكين وابن السَّبيل والمملوك مِن الآدَمِيِّين والبَهائم. فالعبادَة تشمَل فِعْلَ كُلِّ ما أمَرَ اللهُ بِه ورسولُه، وتَرْكَ كلّ ما نهى الله عنه ورسولُه، وهذا يشمَل كلّ حَياةِ المسلِم.

الأسئِلَة:

س1: ما الذي يشمَله مُسمَّى العِبادة مع الاستِدلال ؟

س2: ما الدَّليل على أنَّ مَصادِرَ العِبادَة مَقصورَةٌ على ما وَرَدَ في الكتاب والسُّنَّة ؟

الفصل الرّابع

الرَّدُّ على الذين يَرَوْنَ عَزْلَ الدِّينِ عن الدَّوْلَةِ

يحاوِل المسْتَشْرِقون والمستَغْرِبون (الذّاهبون مَذْهَب الغَرْبِ في فَهْمِ الدِّين) أن يَعزِلوا الدِّينَ والعِبادَة عن بَقِيَّةِ شُؤونِ الحياةِ ويحصروهما في نِطاقٍ ضَيِّقٍ مِن حَياةِ المسلِمين، فيجعلوهما فِيما يمارِسُه المسلِمون في المساجِدِ مِن الصَّلاةِ والذِّكْرِ، أو فيما بين العَبْدِ وبين رَبِّه، ولا شَأْنَ لِلدِّين والعقيدة بذلك، وأنَّ شُؤونَ هذه الأُمورِ بِزَعْمِهِم مِن اختِصاصِ القَوانين الوَضْعِيَّة والنُّظُمِ الأرضِيَّة تَشْريعاً وتَطْبِيقاً، وهذا كُفْرٌ بِاللهِ عزَّ وَجَلَّ، وعَزْلٌ لِسُلطانِه، وتَعْطِيلٌ لِشَرْعِه، وشَرْكٌ في عِبادَتِه؛ لأنَّ الدِّينَ والعِبادَة – كما سَلَف – يشمَلان كُلَّ شُؤونِ المسلمين، عَقِيدَةً، وعِبادَةً، ومُعامَلَةً، وتحكِيماً، وحُكْماً، وسُلوكاً، وأخلاقاً، قال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [المائدة: 3].

فالذي يَقْصُرُ الإسلامَ على بعض الشَّعائر التَّعبديَّة ويَعزِله ويُقْصِيه عن بَقِيَّة شُؤونِ الحياة؛ يعتَبِرُهُ ناقِصاً ويكَذِّبُ قولَه تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: 3].

وقولَه تعالى: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ [النساء: 59].

وقولَه تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۖ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [الممتحنة: 10].

إنَّ الإسلامَ معناه الاستِسلامُ للهِ بالتَّوحيد، والانقِياد له بالطّاعَة، وتلقِّي الأحكامِ منه، قال تعالى: ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ [يوسف: 40].

وقال تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: 21].

أما الذي يزعُم أنَّه يُؤْمِن باللهِ ويتَلَقَّى الأحكامَ مِن غَيْرِه فهو كاذِبٌ في دَعْواه الإيمان، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ﴾ [النساء: 60].

ما هذا التَّناقُض ؟ هل يجتمِع الإيمانُ باللهِ مع تحكِيمِ الطّاغوت وعَدَمِ الكُفْرِ بِهِ ؟! إنَّ الكَفْرَ بِالطّاغوتِ شَرْطٌ أساسِيٌّ في صِحَّة الإيمانِ باللهِ والاسْتِمساكِ بِدِينِه، قال تعالى: ﴿ فَمَن

يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: 256].

وأعظَم مِن ذلك محاولَة فَصْلِ تَوحِيدِ الأُلُوهِيَّة عن العقيدة؛ بحيث تكون العَقِيدَة المطلوبة في نَظَرِ بعضِ الضُّلّالِ هي الإقرارُ بتَوحِيد الرُّبوبِّيَّة. فإذا أقرَّ به صار عندهم مُوَحِّداً [1]. ولو عَبَدَ غيرَ اللهِ مِن القُبورِ والأولياءش والصّالحين.

الأسئِلَة:

كيف تَرُدُّ على مَن يَرى عَزْلَ الدِّين عن شُؤونِ الحياة ؟، وما حُكْم مَن يرى ذلك أو يَفْعَله، مع الاسْتِدلالِ ؟

(1) كما هو موجود في كتب العَقائِد المؤلَّفة على طريقَة المتكلِّمين حيث يُعَرِّفون التَّوحيد: بأنَّه الإقرارُ بِوُجودِ اللهِ، وأنَّه الخالِقُ المدَبِّر لِلْكَوْنِ إلى آخِر ما يقولون.

الفَصْلُ الخامِس

المَنْهَجُ الإلَهِيُّ لِنِظامِ الحَياة هو مَنْهَجُ الإيمانِ بِاللهِ

قال الله تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران: 164].

كان النّاسُ قبلَ بِعْثَة النَّبيِّ ﷺ في جاهِلِيَّة جَهْلاء وضَلالَةٍ عَمْياء، في عِبادَتهم، حيث يعبدون الأصنامَ، وفي حُكْمِهِم وسِياسَتِهِم حيث يحكَمُّون الطَّواغِيت، ويعيشون على الغارات، والثارات، والنَّهب والسَّلب والقَلَقِ والخوف. وفي اقتِصادِيَّاتهم حيث يتَعامَلون بِالرِّبا والميسِر وأكلِ الأموالِ بالباطِل، إلى غير ذلك مِن الضَّلالِ، وكانوا مُسْتَضْعَفِين في الأرضِ لا دَوْلَة تجمَعُهُم، ولا عَقِيدَة تُؤَلِّف بينَهم، فلمّا بَعَثَ اللهُ النَّبيَّ ﷺ أخرجَ اللهُ به المؤمنين مِن الظُّلمات إلى النُّورِ، فصَحَّت عَقِيدَتهم، واجتَمَعَت كَلِمَتُهم، وقامَت دَوْلَتُهُم، وتَأَلَّفَت قُلوبهم، وطابَت مَكاسِبُهُم، وقام اقتِصادُهُم. وقد ذكَّرهم بذلك في قوله: ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عمران: 103].

وفي قوله: ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الأنفال: 26].

وفي قوله: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: 151].

هذا هو المنهج الإلهيّ لِنِظامِ الحياةِ مَنْهَج الإيمانِ بالله ورسوله والحكم بشَريعَتِه. وما عداه مِن المناهِج البَشَرِيَّة المخالِفَةِ لِلمَنْهَجِ الإلهيِّ هو مَنْهَج الجاهليَّة، قال تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة: 49].

فما عَدا حكم الإسلام هو حكم الجاهلِيَّة، وإن سُمِّيَ تَقَدُّماً ورقِيّاً، وإن كان عليه أكثر الخلقِ وأعظَمُهُم تَقَدُّماً في الحضارة المادِيَّة، وكلُّ دَعْوَةٍ بِغَيْرِ الإسلامِ هي دعوة جاهلِيَّة، كالدَّعوَةِ إلى القَوْمِيّاتِ والحزبِيّات والعُنْصُرِيّات، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا

وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات: 13].

فالفَضْل إنّما هو في الدِّين والتَّقوى لا في القَومِيّات والعنصِريّات والحزبيّات، وقد قال النَّبيُّ ﷺ في خُطبَتِه يومَ فتحِ مَكَّة:(يا أيّها النّاسُ إنَّ اللهَ تعالى قد أذهبَ عنكُم عُبِّيَّةَ [1] الجاهِلِيَّةِ وتَعَظُّمَها بِآبائِها، فالنّاس رَجُلان: رَجُلٌ بَرٌّ تَقِيٌّ كَرِيم على اللهِ تعالى، ورَجُلٌ فاجِرٌ شَقِيٌّ هَيِّنٌ على اللهِ تعالى، إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات: 13].

ثم قال ﷺ:" أقول قَوْلي هذا وأَسْتَغْفِر اللهَ لي ولَكُم "[2].

الأسئِلَة:

س1: أُذكر الأدِلَّة على أنَّ المنهَجَ الإلهيَّ لِنِظامِ الحياة هو مَنْهَج الإيمانِ وَحْدَه ؟

س2: ما حُكْمُ المناهِجِ المخالِفَةِ لِلمَنهج الإلهيِّ ؟، وما الدَّليل على ذلك ؟

---

(1) عُبِّيَّة: بِضَمّ العَيْنِ وكَسْرِ الباء مُشَدَّدة، وتَشْدِيد الياء مَفتوحة: الكِبْرُ. النهاية لابن الأثير (١٦٩/٣).

(2) رواه ابن أبي حاتم، وله شَواهِد عند أحمد، وأبي داود، والتِّرمِذِي.

الباب الرابع
في الإيمان بأسماء الله وصفاته

ويتكوَّن من الفصول الآتية:

الفصل الأوّل: الأدلَّة من الكتاب والسُّنَّة والعقل على ثُبوت الأسماء والصِّفات.

الفصل الثّاني: منهج أهل السُّنَّة والجماعة في أسماء الله وصِفاته.

الفصل الثّالث: الرَّدُّ على مَن أنكر الأسماء والصِّفات أو أنكر شيئاً منها.

الفَصْلُ الأَوَّل

الأدِلَّة مِن الكِتابِ والسُّنَّةِ والعَقْلِ على ثُبوتِ الأسماءِ والصِّفات

أ- الأدِلَّة مِن الكِتابِ والسُّنَّةِ:

سبَق أن ذكَرنا أنَّ التَّوحِيدَ ينقَسِم إلى ثلاثة أقسام: توحيد الرُّبُوبيَّة، وتوحيد الأُلُوهِيَّة، وتوحيد الأسماء والصِّفات، وذكرنا جملةً مِن الأدِلَّة على النَّوعَيْنِ الأَوَّلَيْن، والآن نَذْكُر الأدِلَّة على النَّوعِ الثّالِث - توحيد الأسماء والصِّفات -، فإليكَ شَيْئاً مِن أدِلَّةِ الكِتابِ والسُّنَّةِ.

قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: 180].

أثبتَ الله سبحانه في هذه الآية لِنَفْسِه الأسماءَ وأخبَر أنَّها حُسْنى. وأَمَرَ بِدُعائِه بها - بأن يُقال: يا الله، يا رحمن، يا رَحِيم، يا حيّ، يا قيّوم، يا رَبّ العالَمِين. وتَوَعَّد الذين يُلْحِدون في أسمائه - بمعنى أنَّهم يَمِيلون بها عن الحقِّ - إمّا بِنَفْيِها عن اللهِ، أو تَأْوِيلِها بِغيرِ مَعناها الصَّحِيحِ، أو غيرِ ذلك مِن أنواع الإلحادِ، تَوَعَّدَهم بِأنَّه سُيجازِيهِم بِعَمَلِهِم السَّيْء.

وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [طه: 8].

وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحشر: 22 - 24].

فدلَّت هذه الآياتُ على إثباتِ الأسماءِ لله.

ومِن الأدلَّة على ثبوت أسماء الله مِن سُنَّةِ الرَّسولِ ﷺ ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال:" إنَّ للهِ تسعةً وتسعِينَ اسماً مائةً إلا واحِداً مَن أحصاها دَخَلَ الجنَّة "[1].

(1) مُتَّفَقٌ عليه.

وليست أسماءُ الله مُنْحَصِرَةً في هذا العَدَدَ بِدَلِيل ما رواه عبدالله بن مسعود ﷺ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال:" أسألُك بكلِّ اسمٍ هو لك سمَّيتَ بِه نفسَك، أو أنزَلْتَه في كِتابِك، أو عَلَّمْتَه أحداً مِن خلقِك، أو اسْتَأثَرْتَ بِه في عِلْمِ الغَيْبِ عندك، أن تجعَلَ القرآنَ العَظِيمَ رَبِيعَ قَلْبِي "الحديث [1].

وكلّ اسمٍ مِن أسماءِ اللهِ يَتَضَمَّن صِفَةً مِن صِفاتِه، فالعليم يدلُّ على العِلْمِ، والحكِيمُ يَدُلُّ على الحِكْمَة، والسَّمِيع البَصِير يدلّان على السَّمْعِ والبَصَرِ، وهكذا كلُّ اسْمٍ يدلُّ على صِفَةٍ مِن صِفاتِ الله تعالى.

وقال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤ ﴾ [الإخلاص: 1 - 4].

عن أنس ﷺ قال: كان رَجُلٌ مِن الأنصار يَؤُمُّهُم في مَسجِد قباء فكان كلَّما افتَتَح سورَةً يقرَأ بها لهم في الصَّلاة مما يقرَأ بِه افتَتَح بـ (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ) حتَّى يَفْرَغ منها، ثم كان يقرأ سُورَة أخرى معها، وكان يَصْنَع ذلك في كلِّ رَكْعَةٍ، فكَلَّمَه أصحابُه فقالوا: إنَّك تَفْتَتِح بهذِهِ السُّورَةِ ثم لا ترى أنها تجزِئُك حتى تقرأَ بِالأخرى. فإمّا أن تقرأَ بها، وإمّا أن تَدَعَها وتَقْرَأَ بِأُخرى. فقال: ما أنا بِتارِكِها، إن أَحْبَبْتُم أن أَؤُمَّكُم بِذلك فَعَلْت، وإن كَرِهْتُم تَرَكْتُكُم. وكانوا يَرَوْنَ أنَّه مِن أفضَلِهِم، وكَرِهوا أن يَؤُمَّهُم غيرُه. فلمّا أتاهُم النَّبيُّ ﷺ أخبَروه الخبَرَ. فقال: يا فلان، ما يمنَعُكَ أن تَفْعَل ما أَمَرَك به أصحابُك، وما حمَلَك على لُزومِ هذه السُّورَةِ في كلِّ ركعَةٍ. قال: إنِّي أُحِبُّها، قال حُبُّكَ إيّاها أَدْخَلَك الجنَّة [2].

وعن عائشة – رضي الله عنها – أنَّ النَّبيَّ ﷺ بَعَث رَجُلاً على سَرِيَّةٍ وكان يقرأُ لأصحابِه في صَلاتِهم فيَخْتِم بـ (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ). فلمّا رجَعوا ذَكَروا ذلك لِلنَّبِيِّ ﷺ فقال: سَلُوه لأيِّ شَيْءٍ يفعَل ذلك، فسألوه فقال: لأنَّها صِفَة الرَّحمنِ، وأنا أُحِبُّ أن أقرأَ بها، فقال النَّبيُّ ﷺ: (أخبِروه

(1) رواه أحمد في المسند، وصحَّحه ابن حبان، وقدل دلَّ على عدَم حصر أسماء الله في تسعة وتسعين. فيكون المراد بالحديث – والله أعلم – أنَّ مَن تَعَلَّم هذه الأسماء التِّسعَة والتِّسعين ودَعا اللهَ بها وعَبَّدَه بها دَخَلَ الجنَّة، ويكون ذلك خاصِيَّة لها.

(2) رواه البخاري في صَحِيحِه.

أنَّ اللهَ تعالى يحبُّه) [1]. يعني أنها اشْتَمَلَت على صِفاتِ الرَّحمنِ.

وقد أخبَر سبحانَه أنَّ له وَجْهاً. قال تعالى: ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الرحمن: 27].

وأنَّ له يَدَيْن، فقال تعالى: ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: 75].

وقال تعالى: ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ [المائدة: 64].

وأنَّه يرضَى ويحبّ ويغضَب ويَسْخَط .. إلى غير ذلك ممّا وَصَفَ اللهُ بِه نفسَه، أو وَصَفَه بهِ رسولُه ﷺ.

ب- الدَّلِيلُ العَقْلِيّ على ثُبوتِ الأسماءِ والصِّفاتِ:

أمّا الدَّليل العقلِيّ على ثبوت الأسماء والصِّفات التي دلَّ عليها الشَّرع فهو أن يقال:

1- هذه المخلوقات العَظِيمة على تَنَوُّعِها واختِلافِها وانتِظامِها في أداء مَصالحها وسَيْرِها في خُطَطِها المرسومَة لها تدلُّ على عَظَمَة الله، وقدرَتِه، وعِلمِه، وحِكْمَتِه، وإرادَتِه، ومَشِيئَتِه.

2- الإنعامُ، والإحسانُ، وكشفُ الضّرِّ، وتفريجُ الكُربات. هذه الأشياء تدلُّ على الرَّحْمَة والكَرَمِ والجودِ.

3- والعِقاب، والانتِقام مِن العُصاةِ يَدلّان على غَضَبِ اللهِ عليهم وكَراهِيَّتِه لهم.

4- وإكرام الطّائعين وإثابَتُهم يدلّان على رضِى اللهِ عنهم ومحبَّتِه لهم.

الأسئِلَة:

س1: أُذكر الأدِّلَة مِن الكتاب والسُّنَّة على ثُبوت الأسماءِ والصِّفات للهِ عزَّ وجلَّ.

---

(1) رواه البخاري في صَحِيحِه.

الفَصْلُ الثّاني

مَنْهَج أهلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ في أسماءِ اللهِ وصِفاتِه

منهج أهل السُّنَّة والجماعَة مِن السَّلَفِ الصّالح وأتباعِهشم إثبات أسماءِ اللهِ وصِفاتِه كما وَرَدَت في الكتاب والسُّنَّة، ويَنْبَني مَنْهَجُهُم على القَواعِد الآتِيَة:

1- أنهم يُثْبِتونَ أسماءَ اللهِ وصفاتِه كما وَرَدَت في الكتاب والسُّنَّة على ظاهِرها، وما تَدُلُّ عليه ألفاظُها مِن المعاني، لا يُأَوِّلونها عن ظاهِرها، ولا يحرِّفون ألفاظَها ودَلالَتِها عن مَواضِعِها.

2- يَنْفُونَ عنها مُشابهة صِفاتِ المخلوقين، كما قال تعالى:﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: 11].

3- لا يتَجاوَزون ما ورد في الكتاب والسُّنَّة في إثبات أسماءِ اللهِ وصِفاتِه. فما أثبَتَه اللهُ ورسولُه مِن ذلك أثبتُوه، وما نَفاهُ اللهُ ورسولُه نَفَوْه. وما سَكَتَ عنه اللهُ ورسولُه سَكَتُوا عنه.

4- يعتقدون أنَّ نصوصَ الأسماءِ والصِّفات مِن المحكَم الذي يُفْهَم مَعناه ويُفَسَّر، وليست مِن المتشابِه، فلا يُفَوِّضون مَعناها، كما يَنْسِبُ ذلك إليهِم مَن كَذَبَ عَلَيْهِم أو لم يَعْرِفْ مَنْهَجَهُم.

5- يُفَوِّضُون كَيْفِيَّة الصِّفاتِ إلى اللهِ تعالى ولا يَبْحَثون عنها.

الأسئِلَة:

س1: بيِّن مَنْهَج أهلِ السُّنَّة والجماعَة في أسماء الله وصِفاتِه.

س2: أُذكُر القَواعِد التي يَنْبَني عليها مَذْهَب أهلِ السُّنَّةِ والجماعَة في أسماء الله وصِفاته.

الفَصْل الثّالث

الرَّدُّ على مَن أنكَرَ الأسماءَ والصِّفات أو أنكَرَ بَعْضَها

الذين يُنكِرون الأسماءَ والصِّفات ثَلاثَةُ أصنافٍ:

1- الجهمِيَّة: وهم أتباع الجهْمِ بن صَفوان، وهؤلاء يُنكِرون الأسماء والصِّفات جميعاً.

2- المعتزِلَة: وهم أتباع واصِل بن عَطاء الذي اعتزَلَ مجلِسَ الحسَنِ البَصرِيّ، وهؤلاء يُثْبِتون الأسماءَ على أنها ألفاظٌ مجرَّدَةٌ عن المعاني، ويَنْفُون الصِّفاتِ كلّها.

3- الأشاعِرَة [1] والماتريدِيّة [2] ومَن تَبِعَهم: وهؤلاء يُثْبِتون الأسماءَ وبعضَ الصِّفات، وينفون بَعْضاً. والشُّبْهَة التي بَنَوا عليها جميعاً مَذاهِبَهم هي الفِرارُ مِن تَشْبِيهِ اللهِ بخلْقِهِ بِزَعْمِهِم، لأنَّ المخلوقين يُسَمَّون بِبَعْضِ تلك الأسماءِ ويُوصَفون بِتِلكَ الصِّفات، فيَلْزَم مِن الاشْتِراكِ في لَفْظِ الاسْمِ والصِّفَة ومَعناهما الاشْتِراكَ في حَقِيقَتِهِما، وهذا يلزم منه تَشْبِيه المخلوقِ بِالخالِق في نَظَرِهِم، والتَزموا حِيالَ ذلك أَحَد أَمْرَيْن:

أ- إمّا تَأْوِيل نُصُوصِ الأسماءِ والصِّفات عن ظاهِرِهما، كتَأْوِيل الوَجْهِ بِالذّاتِ. واليَدِ بِالنِّعْمَة.

ب- وإمّا تَفْوِيض مَعاني هذه النُّصوصِ إلى اللهِ، فيقولون: اللهُ أَعْلَم بمرادِهِ مِنها، مع اعتِقادِ أنَّها ليست على ظاهِرِها.

وأوَل مَن عُرِفَ عنه إنكارُ الأسماء والصِّفات بعض مُشْرِكِي العَرَبِ الذين أنزل الله فيهم قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ [الرعد: 30].

وسبَبُ نزولِ هذه الآيَة أنَّ قُرَيشاً لَمّا سمعَت رسولَ الله ﷺ يذكر الرَّحمن أنكَروا ذلك، فأنزلَ الله فيهم ﴿ وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِ ﴾، وذكر ابن جرير أنَّ ذلك كان في صُلْحِ الحدَيْبِيَة حين كَتَبَ

(1) هم أتباع مذهب أبي الحسن الأشعري قبل رجوعِه إلى مذهب أهل السُّنَّة، ولم يَرْجِعوا عمّا رَجَع عنه.

(2) هم أتباع مَذْهَب أبي مَنصور الماتريدِي.

الكاتِب في قَضِيَّة الصُّلْحِ الذي جَرى بينَهم وبين رَسولِ الله ﷺ:(بسم الله الرَّحمن الرَّحيم) فقالت قريش: أمّا الرَّحمن فلا نَعْرِفُه، وروى ابن جرير أيضاً عن ابن عباس كان رسولُ اللهِ ﷺ يدعو ساجِداً بِقَوْل:(يا رحمن يا رَحِيم) فقال المشركون: هذا يَزْعُم أنَّه يَدْعُو واحِداً وهو يَدْعُو مثنى. فأنزل الله: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: 110].

وقال تعالى في سورة الفرقان: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: 60].

فهؤلاءِ المشرِكون هم سَلَفُ الجهميَّة والمعتَزِلَة والأشاعِرَة، وكلُّ مَن نَفَى عن اللهِ ما أَثْبَتَه لِنَفْسِه أو أَثْبَتَه له رَسُولُه ﷺ مِن أسماءِ اللهِ وصِفاتِه. وبِئْسَ السَّلَف لِبِئْسَ الخَلَفِ.

والرَّدُّ عليهِم مِن وُجوهٍ:

الوَجْهُ الأَوَّل:

أنَّ اللهَ سبحانه وتعالى أثبَتَ لِنَفسِه الأسماءَ والصِّفات وأثبَتَهُما له رسولُ الله ﷺ، فنَفْيُها عن اللهِ أو نَفْيُ بعضِها نَفْيٌ لِما أثبَتَه اللهُ ورسولُه، وهذا محادَّةٌ للهِ ورَسولِه.

الوَجْهُ الثّاني:

أنَّه لا يَلْزَم مِن وُجودِ هذه الصِّفاتِ في المخلوقين أو مَن تسَمَّى مِن بعضِ المخلوقين بِشَيْءٍ مِن تلك الأسماءِ المشابَهَة بين الله وخَلْقِه، فإنَّ للهِ سبحانَه أسماء وصِفات تخصُّه، وللمخلوقِ أسماء وصِفات تخصُّه. فكما أنَّ للهِ سبحانَه وتعالى ذاتاً لا تُشْبِه ذَوات المخلوقين فَلَه أسماء وصِفات لا تُشْبِه أسماءَ المخلوقين وصِفاتهم، والاشْتِراك في الاسم والمعنى العامّ لا يُوجِب الاشتِراكَ في الحقيقة، فقد سمَّى اللهُ نفسَه عَلِيماً حَلِيماً وسمَّى بعضَ عِبادِهِ عَلِيماً فقال: ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴾ [الذاريات: 28]. يعني إسحاق، وسمَّى آخر حَلِيماً، فقال: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: 101]، يعني إسماعيل، وليس العَلِيمُ كالعَلِيم، ولا الحَلِيم كالحليم، وسمَّى نفسَه فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [النساء: 58]، وسمَّى بعض عِبادِهِ سميعاً بَصِيراً فقال: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [الإنسان: 2]، وليس السَّميع كالسَّميع، ولا البَصِيرُ كالبَصِير. وسمَّى نفسَه بِالرَّؤوفِ الرَّحِيمِ فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحج:

65]، وسمى بعضَ عِبادِه رؤوفاً رَحِيماً فقال: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 128].

وليس الرَّؤوف كالرَّؤوف، ولا الرَّحِيم كالرَّحِيمِ، وكذلك وَصَفَ نفسَه بِصِفاتٍ، ووصَفَ عبادِه بِنَظِيرِ ذلك، مثل قوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾ [البقرة: 255]، فوصَف نفسَه بِالعِلْمِ ووَصَف عِبادَه بِالعِلْمِ فقال: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 85]، وقال: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: 76]، وقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ [القصص: 80]، ووَصف نفسَه بالقُوَّةِ فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: 74]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: 58]، ووصفَ عِبادَه بِالقُوَّة فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم: 54]، إلى غير ذلك. ومعلومٌ أنَّ أسماءَ الله وصِفاته تخصُّه وتَليقُ به. وأسماء المخلوقين تخصُّهُم وتَليقُ بهم، ولا يَلْزَم مِن الاشْتِراكِ في الاسْمِ والمعنى الاشْتِراك في الحقِيقَة، وذلك لِعَدَم التَّماثُلِ بين المُسَمَّيَيْنِ والموصُوفَيْنِ، وهذا ظاهِرٌ ولله الحمدُ.

الوَجْهُ الثّالِث:

أنَّ الذي ليس له صِفات كمالٍ لا يصلُح أن يكون إلهاً، ولهذا قال إبراهيم لأبيه: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: 42].

وقال تعالى في الرَّدِّ على الذين عَبَدوا العِجْلَ: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: 148].

الوَجْهُ الرّابع:

أنَّ إثباتَ الصِّفات كَمالٌ، ونَفْيَها نَقْصٌ، فالذي ليس له صِفات إمّا مَعدومٌ وإمّا ناقِصٌ، والله تعالى مُنَزَّه عن النَّقْصِ.

الوَجْهُ الخامِس:

أنَّ تأويلَ الصِّفات عن ظاهِرِها لا دَلِيلَ عليه فهو باطِل، وتفويضُ مَعناها يلزَم منه أنَّ اللهَ

خاطَبَنا في القرآن بما لا نَفْهَم مَعناه مع أنَّه أَمَرَنا أن نَدْعُوه بأسمائِه. فكيف نَدْعُوه بِما لا نَفْهَم مَعناه، وأمَرَنا بِتَدَبُّر القرآنِ كلِّه، فكيف يَأْمُرنا بِتَدَبُّرِ ما لا يُفهَم.

فتبَيَّن مِن هذا أنَّه لا بُدَّ مِن إثباتِ أسماء اللهِ وصفاتِه على الوَجْهِ اللّائِقِ باللهِ مع نَفْيِ مُشابهة المخلوقين كما قال تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: 11].

فنَفى عن نفسِه مماثَلَة الأشياءِ، وأثبَتَ له السَّمع والبَصر، فدلَّ على أنَّ إثباتَ الصِّفات لا يَلْزَم منه التَّشبِيه. وعلى وُجوبِ إثباتِ الصِّفات مع نَفْيِ المشابَهَة، وهذا معنى قولِ أهل السُّنَّة والجماعة: إثباتٌ بِلا تمثِيلٍ، وتَنْزِيهٌ بِلا تَعْطِيلٍ.

وصلَّى الله على نبيِّنا محمَّدٍ وآلِه وصَحْبِه وسلّم.

الأسئِلَة:

س1: اذكُر طَوائِف الذين أنكَروا الأسماء والصِّفات، أو أنكروا بعضَها. وما شُبهَتُهم في ذلك ؟

س2: كيف تَرُدُّ على مُنْكِري الأسماءِ والصِّفات أو أيّ شَيْءٍ مِنها ؟